كلفن هال

أصول علم النفس الفرويدي

ترجمة

دكتور محمد فتحي الشنيطي

١٩٧٠



إهـــــداء 2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

كلفن هـال

أصول علم النفس الفرويدي

ترجمة

دكتور محمد فتحي الشنيطي

١٩٧٠

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

تصدير الطبعة الثانية

يعدّ هذا الكتاب عن « أصول علم النفس الفرويدي » [1] خلاصة أمينة لذلك الجهد العلمي العبقري الذي بذله « سيجموند فرويد » طيلة أربعين عاما أنفقها في البحث والتجربة . وهو كذلك ثمرة فهم واع لنظريات « فرويد » الاساسية . وقد حرص مؤلفه على أن يبلور تفسير « فرويد » للشخصية في رؤية واضحة تبرز ما فيها من تكامل وتجانس ، بعد تحديد الخطوات التي تقطعها تكوينا ونموا .

وميزة هذا الكتاب أنه يخلو من الحماس لآراء « فرويد » ، واعتناقها والدعوة اليها ، وانما يقتصر الباحث على عرض هذه الآراء عرضا موضوعيا نزيها من واقع كتابات « فرويد » نفسه . وتجعل له هذه الميزة قيمة كبرى وبخاصة في هذه الايام التى تعددت فيها نظريات علم النفس ، ولم يعد التحليل النفسي على النسق الفرويدي يستقطب وحده الانتباه . أضف الى

---

(1) الف هذا الكتاب القيم « كالفن هال » Calvin Hall الاستاذ بقسم علم النفس بجامعة « وسترن ريزرف » بالولايات المتحدة الامريكية . وصدرت طبعته الاولى في ابريل ١٩٥٤ ، وقد صدرت ترجمتنا العربية لـه لاول مرة في الشرق العربي في اغسطس ١٩٦٠ ، عن مكتبة القاهرة الحديثة ، ورأينا اذا ذاك أن يأتي العنوان العربي معدلا : (الشخصية بتحليل فرويد) ، ولكن في هذه الطبعة الثانية آثرنا أن يأتي العنـوان العربى صنوا للعنوان الاصلي: Primer of Freudian Psychology ، وذلك اقتناعا بملاحظة للزميل الدكتور عبد القادر فرج ، مدرس علم النفس بكلية الآداب جامعة عين شمس، الذي ننتهز هذه الفرصة لنشكره على عنايته بقراءة الطبعة الاولى وعلى ما ابداه من ملاحظات قيمة على ترجمة بعض المصطلحات .

ذلك أن هذا العرض الموضوعي يزوّد القارىء العربي بزاد من المعرفة لم يكن ليتهيأ له الا بمطالعة كتب « فرويد » ، وقد تكون بعيدة عن مناله ، أو قد يضيق به وقته ، مع وجودها بين يديه ، عن استيعاب أهم ما فيها .

وقد حرصت عند اصدار هذه الطبعة الثانية ، على مراجعة الترجمة في الطبعة الاولى مرة ثانية على الاصل ، فوجدتها وافية بالغرض ، بعد أن أجريت تعديلات طفيفة على بعض المصطلحات وفي سياق العرض . فعسى أن يجد فيه طلاب الجامعات العربية والمعاهد المتخصصة وعشاق المعرفة ، مرجعا مرشدا في التعريف بعلم النفس الفرويدي .

والله نسأل التوفيق ،

محمد فتحي الشنيطي

بيروت — (يناير) كانون الثاني
١٩٧٠

تصدير المترجم

هذا كتاب قيم يستخلص فيه مؤلفه آراء العلامة «سيجموند فرويد» استخلاصا أمينا نزيها من واقع أبحاث « فرويد » ذاتها . وتستبان فيه فلسفة « فرويد » المستنبطة من تعمق مثابر واستطلاع دؤوب لمقومات النفس البشرية .

وقد توخى المؤلف أن يسوق لنا صورة ناصعة مشرقة ، لدراسة « فرويد » للشخصية السوية ، بعد أن غلب على ظن عدد كبير من الباحثين والمثقفين أن هم « فرويد » منصب فحسب على ابراز جوانب الشذوذ والمرض في الانسان .

وقد حفزتني هذه الزاوية الجديدة التي أطل منها مؤلف الكتاب على نظريات « فرويد » الى أن أعمد الى نقل كتابه الى لغتنا ، حتى ينتفع بما جاء فيه أكبر عدد ممكن من الباحثين في الدراسات الفلسفية والنفسية والاجتماعية ، وهي دراسات مرتبطة ــ رغم غلو البعض في اقامة الحواجز المتكلفة بينها ــ في وحدة متسقة تتمثل في الانسان وحياته ، من حيث عواطفه وآماله ، آلامه وأحلامه ، مشكلاته وصلاته بالعالم المادي والمجتمع .

وفي الكتاب اغراء للقارىء على متابعة فصوله ، واثارة لشغفه للبحث والتعمق فيما يبرزه من دقائق وما يحيط به من مشكلات . فعسى أن يستفيد

منه عامة المثقفين وخاصة الدارسين ، وأن يجد فيه من اطلع على كتاب « التحليل النفسي » لارنست جونز الذي قمنا بترجمته [1] من سنوات ، أضواء جديدة على نظريات « فرويد » .

والله موفقنا الى الخير .

القاهرة يوليه ١٩٦٠ — محمد فتحي الشنيطي

---

(١) أنظر « التحليل النفسي » لارنست جونز ، ترجمة الدكتور محمد فتحى الشنيطى ـ مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٧ .

مقدمة المؤلف

دعاني الى تأليف هذا الكتاب ، رغبتي في أن أقدم نظريات « فرويد » السيكولوجية بأقصى ما أستطيع من وضوح واختصار ونظام •

وقد تولىّ عدد من الكتاب تلخيص ما أسهم به « فرويد » في مجالات علم النفس المرَضي ، والطب النفساني ، وطب الامراض العقلية ؛ بيد أن عمله كصاحب نظريات في مجال علم النفس العام لم يقدم بنفس النظام والاحاطة كما أتيح لى أن أفعل •

والرأي عندى ــ وهو رأى يشاركني فيه على ما أعتقد ، عدد يتزايد يوما بعد يوم من زملائي علماء النفس ــ أن الدور المميز « لفرويد » في تاريخ العلم هو أنه صاحب نظريات سيكولوجية • و « فرويد » نفسه يرى أن التحليل النفسي هو قبل كل شيء نظام من أنظمة علم النفس ، وليس فحسب فرعا من علم نفس الشواذ أو طب الامراض العقلية •

فغرضي اذن من تلخيص علم النفس عند « فرويد » هو أن أفلت به من اسار الاضطرابات العقلية ، وأحفظ له مكانه المشروع في رحاب علم النفس السوىّ • ولست أقصد حين أوّضح غرضي على هذا النحو أن أهوّن من قدر ما ساهم به « فرويد » في طب الامراض العقلية • فان هذه المساهمة بذاتها تضمن له مكانا مصونا في التاريخ • وعلى أية حال فأنا

أشعر أن « فرويد » لو كان قد استأثر به فرع من فروع الطب لما أنزوت نظرياته الاساسية في ركن ثانوى فحسب ، بل لكان علم النفس أيضا هو الخاسر لجهله ثمتئذ بأشد عقلياته ابداعا •

وهذا الكتاب يقتصر على العرض فقط • فلم أحاول تقييم نظريات « فرويد » أو نقدها أو فحصها بقصد المقارنة بينها وبين غيرها من النظريات، وذلك لانني أشعر أنه ينبغي للمرء أن يفهم شيئا قبل أن يكون لنقده قيمة ما • فنحن نهلع من طغيان النقد الذي يستند الى فهم ناقص • ولقد قاسى « فرويد » من ذلك أشد مما قاسى أي مفكر عظيم آخر في عصرنا • فقد حرّفت نظرياته وشوّهت على أوسع نطاق بحيث يكاد يكون مستحيلا للقارىء غير المتشكك أن يفصل ما هو حق فيها عما هو زيف •

وليس عرض علم النفس الفرويدي بأمر سهل • فان أفكار «فرويد» مبعثرة في ثنايا كتاباته منذ أوائل سنة ١٨٩٠ حتى أواخر سنة ١٩٣٠ • وعلى الانسان أن يطالع كل شيء حتى يتأكد من أنه لم تفته نقطة جوهرية واحدة• زد على ذلك أنه قد واجهتني مهمة اتخاذ قرارات فيما يتصل بآراء «فرويد» النهائية بصدد عدد من النقط موضع الخلاف ، ما دمت أشعر بأن هـذا الكتاب ليس تلخيصا تاريخيا لافكاره • لقد كان « فرويد » دائب المراجعة والتعديل والتوسيع في نظرياته ؛ فقد تخلى عن بعض نظرياته الاولى وأعاد صياغة الكثير منها • وفي اتخاذ هذه القرارات توّخيت أن أنتفع بكل شهادة ممكنة مضافا اليها حكمى الخاص • ولا شك في أن بعض الاخطاء جرت في هذه الاحكام • فمن الممكن أنني « قرأت في فرويد » ما كنت أحب أن أجده هناك • ولكنني حاولت ان أتجنب هذا الخطأ باليقظة اليه دائما • فكلما شعرت أنني « أقرأ في فرويد » شيئا ليس في مقصده عدت مرة أخرى الى كتاباته للتأكد • وأملى أن النتيجة هى استخلاص موضوعى لآراء فرويد أكثر منها « قراءة في فرويد » •

وفي كتابى هذا استخدمت المصادر الاولى أعنى مؤلفات « فرويد » المنشورة • وقد رأيت من الافضل أن أعيش فيما قاله « فرويد » نفسه من أن أعتمد على مصادر ثانوية • وكل قارىء يستطيع أن يحيط ببعض ما كتب « فرويد » بالاطلاع على المراجع التي أوردتها في آخر كل فصل [1] ، وأن يحيط بكل ما كتبه بقراءة أعمال « فرويد » المجموعة وهى لحسن الحظ في متناول يدنا في طبعة حديثة باللغة الانجليزية •

ولقد ألفت كتابى هذا للقارىء العام ولطلاب علم النفس على حد سواء • وانتفعت فيه انتفاعا عظيما بالاقتراحات المفيدة التى أدلى بها تلاميذي الذين اطلعوا عليه في مسودته الاولى ، وأعانونى على أن يأتى تعبيري أقرب منالا للقارىء الذي لديه محصول محدود من المعلومات السيكولوجية • وهأنذا أعبر عن تقديري لتلاميذي هؤلاء بأن أهديه اليهم •

كلفن هال
قسم علم النفس
جامعة وسترن ريزرف

أوهايو ــ ابريل سنة ١٩٥٤

---

(١) آثرنا ان تجمع المراجع مقسمة على الفصول في ثبت موحد في آخر الكتاب •
« المترجم » •

الفصل الأول

سيجموند فرويد : سيرته ومبتكراته

١ـ تراث « فرويد » العلمي :

ولد « سيجموند فرويد » في « فرايبورج » بمقاطعة « مورافيا » ، ومات في لندن . ولكنه ينتمى الى مدينة « فيينا » حيث أقام زهاء ثمانين عاما . ولو لم يزحف النازيون الى النمسا سنة ١٩٣٧ ، ولو لم يجبر « فرويد » على الالتجاء الى انجلترا ، لانفق حياته كلها ــ فيما عدا السنوات الثلاث الاولى منها ــ في عاصمة النمسا .

وتمثل حياة « فرويد » المديدة من سنة ١٨٥٦ الى سنة ١٩٣٩ فترة من أخصب الفترات في تاريخ العلم . ففى نفس السنة التى نزحت فيها أسرة « فرويد » بطفلها ذي الربيع الثالث الى « فيينا » ، ظهر كتاب « تشالز داروين » : « أصل الانواع » . وقد افضى هذا الكتاب الى ثورة في تصور الانسان لاخيه الانسان . فقبل « داروين » كان الانسان ينحّى جانبا عن سائر مملكة الحيوان بفضل ما ينعم به من ملكة الفهم . ولكن النظرية التطورية جعلت من الانسان جزءا من الطبيعة ، وحيوانا بين سائر أفراد الحيوان . وكان تقبل هذه النظرية الجديدة ايذانا بوجوب نهوض دراسة الانسان على أسس طبيعية . وغدا الانسان موضوعا للبحث العلمي

لا يختلف في ذلك عن صور الحياة الاخرى ، اللهم الا بما يتميز به من تعقيد .

وفي السنة التالية لظهور كتاب « أصل الانواع » — وكان « فرويد » في الربيع الرابع — أسس « جوستاف فخنر » علم النفس . ففى عام ١٨٦٠ برهن هذا العالم الفيلسوف الالمانى العظيم في القرن التاسع عشر على أن من الميسور دراسة العقل دراسة علمية ، وأن في الوسع قياسه قياسا كميا . ومن ثم احتل علم النفس مكانه بين سائر العلوم الطبيعية .

وكان لهذين العالمين « داروين » و « فخنر » أثر عميق في تطـور « فرويد » الفكرى ، كما كان شأنهما مع عدد كبير من الشبان في تلك الحقبة من التاريخ . فقد تزايد الاهتمام بالعلوم البيولوجية وبعلم النفس في غضون النصف الثانى من القرن التاسـع عشر . اذ أرسى « لويس باستير » و « روبرت كوخ » ببحثهما الجوهري عن نظرية الجراثيم فـي المرض ، دعائم علم البكتريولوجيا ، وأقام « جريجور ماندل » بدراساته في فصائل الباذلاء علم الوراثة الحديث . لقد كان هنالك بحق ثورة مبدعة في العلوم .

وثمة مؤثرات أخرى كان لها على « فرويد » نفوذ أعمق وقد سرت هذه المؤثرات اليه من علم الطبيعة . ففي منتصف القرن التاسع عشر صاغ عالم الطبيعة الالمانى الكبير « هرمان فون هلمهلتز » ، مبدأ الاحتفـاظ بالطاقة . وهذا المبدأ يبين في الواقع أن الطاقة كمية شأنها شأن الكتلة . ومن الممكن أن تتحوّل وليس من الممكن أن تتبدّد ، وحين تختفى الطاقة من جزء ما من أجزاء نظام ما ، فانها تظهر في جزء آخر من أجزاء هذا النظام عينه . مثال ذلك حين يغدو شيء ما أبرد ، فان شيئا آخر متاخما له يصبح أدفـأ .

وقد أفضت دراسة التغيرات في الطاقة في النظام الطبيعي الى كشف تلو الآخر في ميدان الديناميات • وكانت السنوات الخمسون التي انطوت منذ ظهور مبدأ « هلمهلتز » عن حفظ الطاقة حتى قيام نظرية « ألبرت أينشتاين » في النسبية بمثابة العصر الذهبى للطاقة • وكانت الديناميات الحرارية والالكترو ــ مغناطيسية ، والنشاط الاشعاعى ، والالكترون ، والنظرية الكمية ، هى بعض ما تــم تحقيقه في ذاك النصف قرن المفعم بالحياة • فان رجالا من أمثال ، « جيمس ماكسويل » ، و « هاتيرنــج هيرتز » ، و « ماكس بلانك » ، و « سير جوزيف شومون » ، و « مارى وبيير كورى » ، و « جيمس جول » ، و « لورد كلفن » ، و « جوزيا جيبسي » ، و « رودلف كلوزيوس » و « ديمترى مندليف » ــ ونحن نكتفى بذكر بعض عمالقة علم الطبيعة الحديث ــ ، رجالا من أمثال هؤلاء كانوا باكتشافهم لاسرار الطاقة يبدّلون بالفعل من وجه العالم • ومعظم الاجهزة والمعدات التي توفر علينا الوقت وتقتصد لنا في الجهد ، وتجعل حياتنا اليوم أيسر بكثير من حياة الامس ، انما جاد بها علينا ما فاض به علم الطبيعة في القرن التاسع عشر من خيرات • ونحن ما برحنا نجنى ثمار هذا العصر الذهبى كما يشهد بذلك العصر الجديد أعنى العصر الذرّى •

بيد أن عصر الطاقة والديناميات أتى بأكثر من مدّ الانسان بالاجهزة الكهربائية ، بالتليفزيون ، والسيارات ، والطائرات أو القنابل الذرية أو الهيدروجينية • لقد زوّده أيضا بتصور جديد لاخيه الانسان • فقد تصور « داروين » الانسان كحيوان ، وأثبت « فخنر » أن عقل الانسان لا يقع خارج نطاق العلم ، وانما في وسعنا أن نحمله الى المعمل ونخضعه للقياس الدقيق • على أن علم الطبيعة الحديث جعل في الامكان النظر الى الانسان نظرة أشدّ جرأة وأصالة • هذه النظرة هى أن الانسان نظام من الطاقة ، وأنه يطيع عين القوانين الطبيعية التي تنظم رغوة الصابون وحركة الافلاك•

لم يكن يسع « فرويد » العالم الشاب المنشغل بالبحث البيولوجي في غضون الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، الا أن يتأثر بعلم الطبيعة الجديد . فقد اقتحمت الطاقة والديناميات كل معمل ونفذت الى أذهان العلماء . وكان من حسن طالع « فرويد » كطالب طب أن يقع تحت تأثير « ارنست بروك » . وكان « بروك » مديرا لمعمل الفسيولوجيا بجامعة فيينا ، وأحد علماء الفسيولوجيا الكبار في القرن التاسع عشر . ويعرض كتابه « محاضرات في الفسيولوجيا » ـ وهو الذي نشر سنة ١٨٧٤ ، في السنة التالية لالتحاق « فرويد » بمدرسة الطب ـ نظرة جديدة : ألا وهى أن جهاز الكائن الحى ، بمثابة نظام من الديناميات تنطبق عليه قوانين الكيمياء والطبيعة . وكان « فرويد » يعجب أيما اعجاب « ببروك » وسرعان ما اعتنق مذهبه الجديد في علم فسيولوجيا الديناميات .

ألا شكرا « لفرويد » العبقرية الفريدة . فقد اكتشف بعد مضي سنة على ذلك ، أن من الممكن تطبيق قوانين الديناميات على شخصية الانسان تطبيقها على بدنه . وحين وصل « فرويد » الى كشفه هذا بدأ يُرسي دعائم علم النفس الدينامى . وعلم النفس الدينامى هو علم النفس الذي يدرس تحوّلات الطاقة وتغيراتها المتبادلة في صميم الشخصية . وقد كان هذا هو أعظم عمل أنجزه « فرويد » ومن أجلّ الاعمال في العلم الحديث . وهو يعد يقينا الحدث الجوهرى في تاريخ علم النفس .

٢ ـ « فرويد » يبدع علم النفس الدينامى :

بالرغم من أن « فرويد » درس الطب وحصل على دبلومه من جامعة « فيينا » سنة ١٨٨١ ، فانه لم يكن ينوى ألبتة أن يمارس هذه المهنة . لقد أراد أن يكون عالما .

ومتابعة منه لهذا الهدف التحق «فرويد» بمدرسة الطب في جامعة « فيينا » ، وكان اذ ذاك في السابع عشرة من عمره . وقد نهض بأول عمل أصيل من أعمال البحث سنة ١٨٧٦ وكان في هذا الفحص الاول ينقب عن خصيتى الثعبان المائي ، وقد وجدهما . وبعد انقضاء زهاء خمسة عشر عاما على ذلك كرّس « فرويد » جهوده للبحوث المنصبة على الجهاز العصبى . على أنه لم يقتصر على هذه البحوث فحسب . ذلك لان موارد البحث العلمى المالية لم تكن تفى بمطالب زوجة وستة أبناء وأقرباء عديدين . أضف الى ذلك أن حركة العداء ضد اليهود التى سادت فيينا في تلك الفترة ، حالت بين « فرويد » وبين الحصول على المعونة الدراسية من الجامعة .

وترتب على ذلك أنه اضطر على غير رغبة منه ، وانتصاحا بنصيحة « بروك » أن يزاول مهنة الطب . ورغم انشغاله في مزاولة هذه المهنة ، فقد كان يجد الوقت للبحث في العُصاب ، وما لبث أن جاءته الشهرة كعالم شاب يبشر بخير عظيم .

وقد كان من حسن الطالع الى حد ما أن أضطر « فرويد » لممارسة الطب . فلو أنه بقى عالم طب فحسب لما أبدع أبدا علم النفس الدينامى . فان الاتصال بالمرضى قد حفزه الى أن يفكر تفكيرا سيكولوجيا .

وحين بدأ « فرويد » ممارسة الطب ، كان من الطبيعي بفضل ما اجتمع له من دراسة علمية أن يتخصص في علاج الاضطرابات العصبية . فقد كان هذا الفرع من فروع الطب متخلفا عن سائر الفروع . ولم يكن هنالك شيء ذو بال يبذل من أجل أولئك الذين يعانون من الاضطرابات العقلية . وقد أصاب « جان شاركو » Jean Charcot في فرنسا ، بعض

النجاح باستخدامه طريقة التنويم وبخاصة في علاج الهستيريا • وأنفق « فرويد » عاما في باريس « ١٨٥ — ١٨٨٦ » يدرس منهج « شاركو » في العلاج • الا أنه لم يكن مقتنعا بطريقة التنويم لانه أدرك أن آثارها مؤقتة فقط ، ولا تنفذ الى جذور الاضطراب •

وقد تعلم « فرويد » من طبيب فيينى آخر هو « جوزيف بروير » J. Breuer فوائد الحديث المرسل أو التداعى الحر في العلاج ، وفي هذه الطريقة يتحدث المريض بينما يصغى الطبيب •

ومع أنه كان على « فرويد » فيما بعد أن يصل الى تنمية الاصول العلاجية وتحسينها ، فان منهج الحديث المرسل أو التداعى الحر قد زوّده بقدر كبير من المعرفة عن الاسباب الخفية للسلوك الشاذ •

وقد بدأ « فرويد » بشغف مخلص للمعرفة وحماس صادق للعلم ، ينفذ الى أعماق عقول مرضاه • وكشف له ذلك عن قوى دينامية تعمل ويفضى عملها الى الامراض الشاذة التى دُعى « فرويد » لعلاجها • وقد بدأت تتبلور في ذهنه الفكرة القائلة بأن معظم هذه القوى لا شعورى •

كان ذلك نقطة التحول في حياة « فرويد » العلمية • واذ تـرك الفسيولوجيا جانبا أضحى باحثا سيكولوجيا • وغدت الغرفة التى يعالج فيها مرضاه معمله ، وأصبح سرير المرضى هو الجهاز الوحيد الميسّر له ، وخطرفة مرضاه هى الوقائع العلمية التي يستند اليها في بحثه • أضف الى ذلك ذهن « فرويد » اليقظ الباحث المنقب ، الذي لا يقر له قرار •

وفي سنة ١٨٩٠ بدأ « فرويد » — باتقان لا يباري فيه — تحليلا ذاتيا عميقا لقواه اللاشعورية بغية ضبط المادة التى يزودها به مرضاه • وبتحليل أحلامه وبمكاشفة نفسه بكل ما يخطر على باله ، استطاع أن يرى تحركات

دينامياته الباطنية . وعلى أساس المعرفة التي جناها من مرضاه ومن نفسه ، بدأ يضع دعامة نظريته في الشخصية . وقد استأثرت تنمية نظريته بمعظم جهوده المبدعة ما بقي من حياته . وكتب « فرويد » فيما بعد يقول :
« لقد كانت حياتي مصوبة الى هدف واحد فحسب ، الا وهو استخلاص أو استنتاج كيفية تكوين الجهاز النفسي ، وأية قوى تتفاعل وتتعارض فيه » .

وفرغ « فرويد » من تأليف كتابه « تفسير الاحلام » في غضون السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسع عشر وسجل تاريخ النشر سنة ١٩٠٠ . فكان ذلك طالع يمن للقرن الوليد . فهذا الكتاب الذي يعدّ اليوم أحد الاعمال العظيمة في العصور الحديثة ، هو اكثر من مؤلف عن الاحلام، هو كتاب عن ديناميات النفس البشرية والفصل الاخير فيه بخاصة يشتمل على نظرية « فرويد » في النفس .

وحين ظهر هذا الكتاب طالعه عدد قليل من عامة القراء ، فكان مجهولا في الاوساط الطبية والعلمية حتى اقتضى توزيع طبعته الاولى المؤلفة من ستمائة نسخة ثماني سنوات . بيد ان الفشل الاول لكتاب « تفسير الاحلام » لم يفزع مؤلفه . فقد واصل « فرويد » بثقة الرجل الذي يعرف أنه يسير في الطريق الصحيح ، استكشاف عقل الانسان بمنهج التحليل النفسي . وفي عين الوقت الذي كان يعين فيه مرضاه على التغلب على اضطراباتهم كان مرضاه يعينونه على بسط معرفته للقوى اللاشعورية .

وبالرغم من هذا الاستقبال الفاتر الذي استقبل به كتاب « تفسير الاحلام » فقد دبج يراع « فرويد » عددا متتابعا من الكتب والمقالات الممتازة في غضون السنوات العشر التى تلت ظهور كتابه . من هذه

الابحاث : « علم النفس المرضى في الحياة اليومية » وفيه يعرض الرأي الجديد القائل بأن زلات اللسان ، والاغـلاط والاحـداث ، والذاكرة الخوّانة ، ترجع جميعها الى بواعث لا شعورية • وفي السنة التالية ظهرت له ثلاثة ابحاث أخرى عميقة المغزى • ومن هذه الابحاث : « حالة مـن حالات الهستيريا » ، وفيه عرض مفصل لمنهج « فرويد » في اقتفاء أثر الاسباب النفسية للاضطرابات العقلية • وبحثه : « ثلاث مقالات عـن الجنسية » ، يعرض على الملأ نظرات « فرويد » في نمو الغريزة الجنسية • وكثير من أصحاب الشأن يعتبرون هذه المقالات أهم عمل « لفرويد » الى جانب تفسير الاحلام • وسواء رضينا عن هذا التقدير أم لم نرض فان هذه المقالات جلبت « لفرويد » الشهرة التى لا أساس لها ، بأنه أسير الجنس •

والكتاب الثالث عن « النكتة وعلاقتها باللاشعور » يبين كيف أن النكت التى يرويها الناس ، هى نتاج ميكانيزمات لا شعورية •

ومع أن « فرويد » ظل عددا من السنين يعمل ويكاد يكون بمعزل عن سائر العلماء والاطباء ، فان كتاباته ونجاح منهجه في علاج المرضى العصابيين قد وجها اليه انتباه عدد قليل منهم • ومن هؤلاء كارل يونـج Carl Yung والفريد أدلر Alfred Adler • وكلاهما قد تنكّر فيما بعد للتحليل النفسي وأسس مدارس منافسة له • ولكنهما كانا من أهم أتباع « فرويد » في السنوا تالسابقة للحرب العالمية الاولى ، وقد أمداه بالعون لتدعيم التحليل النفسي كحركة عالمية •

وفي سنة ١٩٠٩ تلقى « فرويد » أول اعتراف اكاديمى به ، اذ دعى للحديث في الاحتفال بمضي عشرين عاما على تأسيس جامعة كلارك في « وورشيستر » بولاية ماساشوست • وقد أبدى « ستانلى هال » مدير جامعة كلارك ــ وهو نفسه عالم نفس ممتاز ــ عرفانا بأهمية العمل الذي

ساهم به « فرويد » في علم النفس ، وأعان على نشر آراء « فرويد » في الولايات المتحدة •

وتوالى العرفان والتقدير على « فرويد » ، وأصبح اسمه عقب الحرب العالمية الاولى معروفا للملايين في مختلف بقاع العالم • ولقد كانت موجة التحليل النفسي هى السائدة وسرى نفوذه الى جميع مسارح الحياة • فالادب والفن والدين والعادات الاجتماعية والاخلاقيات وعلم الاخلاق والتربية والعلوم الاجتماعية كلها لحقها أثر علم النفس الفرويدي • وعدت بدعة العصر أن يحلل الناس أنفسهم ، وأن يلوكوا في أحاديثهم كلمات من قبيل : تحت الشعور ، والدوافع المكبوتة ، والعُقَد • ويُعزى معظم اهتمام الناس عامة بالتحليل النفسي الى ارتباطه بالجنس •

وواصل فرويد التأليف والكتابة طيلة حياته • فما يكاد يمر عام حتى يكون قد نشر — على أقل تقدير — كتابا هاما او مقالا قيما • ومؤلفاته المجموعة التي تظهر الآن في طبعة انجليزية تشغل أربعة وعشرين مجلدا •

وكان « فرويد » أستاذا في الكتابة النثرية • فكانت له سلاسة في التعبير لا يباريه فيها كاتب علمى آخر • ولم يكن يدخر جهدا في أن ينقل أفكاره الى قرائه — دون أن يهبط اليهم — في صورة حية جذابة مشرقة •

ولم يشعر « فرويد » قط أن عمله قد أنجز • وكلما لاح له دليل جديد من مرضاه أو من زملائه ، عاد الى مراجعة نظرياته الاساسية • مثال ذلك أنه في سنة ١٩٢٠ — في سن الرابعة والستين بدّل تبديلا كاملا عددا من نظرياته الاساسية • فقد عدل نظريته في الدوافع ، وقلب رأسا على عقب نظريته في القلق ، ووضع نموذجا جديدا للشخصية مؤسسا على الهو والانا والانا الاعلى • ونحن لا نتوقع مثل هذه المرونة من شخص

يناهز السبعين ، فان مقاومة التغيير هى طابع الكهولة . ولكننا لا يمكن أن نحكم على « فرويد » بالمقاييس المألوفة ، فقد تلقى في مقبل عمره درسا مفاده أن رضي العالم بما توصل اليه ، واكتفاءه به ان هو الا دليل على خمود الهمة وجمود القريحة .

٣ ــ مكانة فرويد :

من كان « فرويد » ؟ كان بحكم مهنته طبيبا ، فكان يعالج مرضاه بمناهج ابتدعها هو نفسه واليوم يمكن أن نطلق عليه طبيبا نفسانيا . وقد غدا الطب النفسي اليوم فرعا من فروع الطب ، يتولى علاج الامراض العقلية وألوان الشذوذ . وفرويد هو أحد مؤسسي الطب النفسي الحديث .

ومع أن « فرويد » كان يجنى رزقه بمزاولة الطب فلم يكن طبيبا باختياره . ففي سنة ١٩٢٧ اعترف قائلا : « بعد واحد وأربعين عاما من النشاط الطبى ، أظهرت لى معرفتى بذاتى أننى لم أكن أبدا في حقيقة الامر طبيبا بالمعنى الصحيح . فلقد صرت طبيبا حين اضطررت اضطرارا أن أنحرف عن مقصدى الاصلى ؟ » . فماذا كان يا ترى مقصده الاصلى ؟ كان فهم بعض ألغاز الطبيعة والاسهام في حلها .

« لقد بدا الى أن أكثر الوسائل امتلاء بالامل في انجاز هذه الغاية أن أدفع بنفسي الى كلية الطب . بيد أننى حتى في ذلك الحين ، زاولت ــ بالفشل ــ علم الحيوان ، والكيمياء ، الى أن أستقر بى المطاف أخيرا ــ بفضل « بروك » الذي حمل أكثر من أي انسان آخر في حياتى كلها ، أكبر العبء ــ عند الفسيولوجيا ، الا أنها كانت في تلك الايام محصورة أكبر انحصار في تشريح الانسجة » .

كان « فرويد » عالما ممتازا أجرى دراسات في الظواهر الفسيولوجية

حين كان طالب طب ، وفيما بعد في اتصالاته بمستشفيات متعددة • ولقد تعلم كيف يجمع الوقائع بالملاحظة الدقيقة ، وكيف يربط بين مكتشفاته ويستخلص النتائج ، وكيف يضبط استنتاجاته باطّراد الملاحظة • ومع أن « فرويد » لم يصل الى اكتشاف فذّ باعتباره عالم فسيولوجيا ، فان خبرته المبكرّة في المعمل زودته بنظام رائع في المنهج العلمى • لقد علمته كيف يكون عالما •

وفي سنة ١٨٩٠ اكتشف « فرويد » أيّ نمط من العلماء كان ينبغى أن يكون • ففى خطاب بعث به الى صديق له كتب يقول : « لقد كان علم النفس هو الهدف الذي يلوح لى من بعيد » • ومنذ ذلك الحين الى نهاية حياته ، أي زهاء أربعين عاما ، كان فرويد عالم نفس •

والآن نتساءل : ما هى العلاقة بين علم النفس وبين التحليل النفسي؟ لقد أجاب « فرويد » بنفسه على هذا السؤال سنة ١٩٢٧ بما يلى : « يندرج التحليل النفسي في مجال علم النفس ، لا علم النفس الطبى بالمعنى القديم ، ولا علم النفس الخاص بالعمليات المرضية ، ولكن علم النفس فحسب ، ومن المؤكد أنه لا يشمل علم النفس كله ، بيد أنه أساسه وربما كان دعامته الكاملة » •

هنا يتحدث « فرويد » عن « التحليل النفسي » كنظرية في الشخصية• بيد أن ثمة جانبا آخر كذلك من التحليل النفسي ، فالتحليل النفسي هو أيضا منهج للعلاج النفسي • وهو يشمل طرائق لعلاج الجانب الانفعالى للمضطربين من الناس • ويرى « فرويد » أن الجوانب العلاجية في التحليل النفسي لاحقة للجوانب العلمية والنظرية وتابعة لها • وهو لم يكن يحب أن يستغرق العلاجُ العلمَ • فمن الاحوط اذن ، ان نميز ـــ كما فعلنا من

قبل ، في هذا الكتاب ــ بين علم النفس الفرويدي كمذهب نظري في علم النفس ، وبين التحليل النفسي كمنهج من مناهج العلاج النفسي .

لقد كان « فرويد » طبيبا ومعالجا نفسيا وعالما فسيولوجيا . كان « فرويد » كل هؤلاء معا على حد سواء . ولكنه كان أيضا أكثر من هذا ، كان فيلسوفا . وقد وقعنا على اشارة الى هذا في خطاب بعث به الى صديق في سنة ١٨٩٦ ذكر فيه : « لم أكن كشاب أتمنى شيئا أكثر من المعرفة الفلسفية ، وأنا الآن في طريقى الى تحقيق هذه الامنية بالانتقال من الطب الى علم النفس » .

ولم يكن غريبا من علماء القرن التاسع عشر أن ينجذبوا الى الفلسفة ؛ فالواقع أن كثيرا منهم كانوا يرون العلم فلسفة . أليست الفلسفة تعنى « محبة المعرفة » ؟ وهل ثمة طريقة أفضل لابداء حب الانسان للمعرفة من أن يكون عالما ؟ ذلكم كان جوهر نصيحة « جوته » لكل ألماني مثقف . ولقد كان صوت « جوته » أشد الاصوات تأثيرا في فكر القرن التاسع عشر ، وكان هو رمزا لالمانيا كلها . ولم يكن « فرويد » ممتنعا على تأثير « جوته » ، فالواقع ان « فرويد » قرر ان يمارس العلم بعد أن استمع الى بحث « جوته » الملهم عن الطبيعة ، وقد تلى في محاضرة عامة .

ولم تكن اهتمامات « فرويد » الفلسفية ، هى نفسها اهتمامات فيلسوف محترف أو أكاديمى . كانت فلسفة « فرويد » فلسفة اجتماعية انسانية فاتخذت صورة بناء لفلسفة الحياة . وللألمان كلمة خاصة بهم للدلالة على هذا هى Weltanschawung ومعناها « النظرة العالمية الشاملة » . لقد اعتنق « فرويد » فلسفة للحياة أشد استنادا الى العلم منها الى الميتافيزيقا والدين . وكان يشعر أن فلسفة للحياة جديرة بالتقدير تنهض

الآن على معرفة صادقة بالطبيعة البشرية ، وهى معرفة لا يمكن تحصيلها الا بالبحث العلمى •

ولم يكن « فرويد » يشعر أن « التحليل النفسي » سينهض بهذه النظرة العالمية الشاملة • وانما التحليل النفسي ضروري فحسب لبسط المعرفة العلمية العالمية الشاملة الى دراسة الانسان • ويمكن أن نلخص فلسفة « فرويد » في الشعار التالى : « المعرفة من ثنايا العلم » •

ومعرفة « فرويد » العميقة الوطيدة بالطبيعة البشرية جعلته مفكرا متشائما وناقدا لاذعا ، ولم يكن لديه ظن طيب سام بالجنس البشري •

لقد كان يرى أن القوى غير المتعقلة في طبيعة الانسان تبلغ من الشدة حدا يجعل للقوى المتعقلة فرصة ضئيلة للتغلب عليها • ان قلة محدودة من الناس هم الذين يستطيعون أن يحيوا حياة العقل ، ولكن أغلب الناس يعيشون بالخرافات والخداع أفضل من أن يعيشوا في الحقيقة • لقد رأى « فرويد » عددا عديدا من المرضى يقاتلون قتالا عنيفا للاحتفاظ بأوهامهم ؛ لكى لا يثقوا ثقة أعظم بقوة المنطق والعقل • ان الناس يقاومون معرفة الحقيقة عن أنفسهم • هذه النظرة التشاؤمية نجدها مبسوطة مصقولة في كتابه « مستقبل وهم » • وان كانت كامنة بين السطور في كثير من كتبه •

وكان « فرويد » كذلك ناقدا اجتماعيا • وكان يعتقد بأن المجتمع الذي يشكله الانسان ، يعكس الى حد كبير الجانب غير المتعقل فيه • وتتيجة ذلك أن يفسد كل جيل جديد ، اذ يولد في مجتمع خلو من العقل • ان تأثير الانسان في المجتمع والمجتمع في الانسان حلقة مفرغة لا يفلت منها الا عدد قليل جدا من شديدي البأس وأقوياء المراس •

وكان « فرويد » يشعر أن اصلاح الحال لا يمكن أن يأتى الا بتطبيق الاصول السيكولوجية في تنشئة الاطفال وتربيتهم • وهذا يعنى بالطبع أن الآباء والمعلمين ينبغى أن يتلقوا تربية سيكولوجية قبل أن يكونوا دعاة فعّالين للعقل وللحقيقة • ولم يهوّن « فرويد » من شأن هذه المهمة الضخمة ، ولكنه لم يعرف طريقة أخرى لخلق مجتمع أفضل وأناس أحسن• ونقد « فرويد » الاجتماعى مبسوط في كتابه : « المدنية ومثالبها » •

ولكننا اذا أخذنا هذه الصفات جميعها معا ، أو منفصلة كلا منها على حدة ، فلن تنكشف للناس جميعا أهمية « فرويد » • ومع أن كلمة « عبقرى » تستخدم دون ما تمييز لوصف عدد من الناس ، فانه ليس ثمة كلمة أخرى مفردة تليق « بفرويد » من هذه الكلمة • لقد كان « فرويد » عبقريا ، وقد يحلو لنا أن نعتبره ، كما أعتبره [1] ، أحد قلائل في التاريخ كان لهم عقل عالمى • لقد كان « فرويد » مثل « شيكسبير » ، و « جوته »، و « ليونار دلفنشي » ، حين يمس شيئا يُشعّ سناء وبهاء • كان فرويد بحق مفكرا عظيما •

---

(١) مؤلف الكتاب « كلفن هال » .

الفصل الثاني

تكوين الشخصية

الشخصية في مجموعها كما تصورها « فرويد » تتألف من ثلاثة أجهزة رئيسية : الهو ، والانا ، والانا الاعلى • ففى الشخص السليم عقليا تؤلف هذه الاجهزة الثلاثة كيانا موحدا متجانسا • وحين تعمل معا عملا تعاونيا تمكن الفرد من أن يمارس نشاطه الفعّال المجدى في بيئته • وغاية هذا النشاط هى ارضاء الحاجات واشباع الرغبات الاساسية للانسان • وعلى العكس من هذا ، اذا اضطربت موازين هذه الاجهزة الثلاثة للشخصية قيل عن الشخص انه شاذ • فهو غير راض عن نفسه وعن العالم ، ويحل بفاعليته الضعف ويعتريها الانكماش •

★★★

٤ ـ الهو :

الوظيفة الوحيدة « للهو » ، هى تمكين انطلاق كميات الاثارة « الطاقة او التوتر » التي يطلقها في الكائن مؤثر خارجى أو داخلى • هذه الوظيفة ترضي المبدأ الاولى او البدائي للحياة الذي يطلق عليه « فرويد » اسم مبدأ اللذة • وهدف مبدأ اللذة هو تخليص الشخص من التوتر أو ـ اذا كان ذلك مستحيلا كما هو الشأن عادة ـ الهبوط بكمية التوتر الى

مستوى دان ، والاحتفاظ بثباتها كلما أمكن ذلك • ويتم التوتر في صورة ألم أو ضيق ، بينما يتمثل التخلص من التوتر في شكل لذة او اشباع • ومن ثم ففى الوسع القول بأن هدف مبدأ اللذة هو تجنب الالم والحصول على اللذة •

ومبدأ اللذة هو حالة خاصة من النزعة العامة التى نجدها في كل مادة حية ، أعنى حفظ الثبات في مواجهة الاضطرابات الداخلية والخارجية •

« والهو » في شكله المبكر هو جهاز انعكاس يطلق مباشرة بمسالك آلية وحسية ، الاثارات التى تصل اليه • وعلى ذلك فحين يسقط ضوء ساطع جدا على قرنية العين يغمض الجفن ويحول بين الضوء وبين الوصول الى القرنية • ويترتب على ذلك أن تهدأ الاثارات التى ولدها الضوء في الجهاز العصبى ، ويعود الكائن العضوى الى حالة راحة عامة • والكائن العضوى مزود بكثير من الافعال المنعكسة المماثلة ، وهى التى تتولى بطريقة آلية اطلاق أية طاقة بدنية ، عمل على فك أسرها مؤثر وقع على عضو حاس • والنتيجة الدالة على الانطلاق الآلى ، هى محو المؤثر • فالعطس مثلا ، يطرد ــ غادة ــ كل ما من شأنه ان يهيج مسالك الانف الحساسة ، وادماع العين يفضي الى طرد كل الجزئيات الغريبة عن العين •

وقد يأتى المؤثر من داخل البدن كما يأتى من خارجه • ومثل واحد على المؤثر الداخلى ، هو الفعل المنعكس الخاص بانفتاح المثانة حين يصل الضغط عليها حدا معينا • والتوتر الناجم عن الضغط هنا ينتهى باخلاء محتويات المثانة •

ولو كان يمكن التخلص من جميع التوترات التى يعانيها الكائن العضوى بالفعل المنعكس ، لما كان هناك حاجة لاى نمو سيكولوجى

يتخطى دائرة الافعال المنعكسة البدائية • وليس الامر كذلك على أية حال، فان كثيرا من التوترات تحدث ولا يقابلها أفعال منعكسة مناسبة لهـا لتصريفها • مثل ذلك حين يؤدي الجوع الى تقلص معدة الطفل ، فان هذه التقلصات لا تنتج آليا الطعام ، بل تولد عوضا عن هذا الضيق والبكاء • وما لم يطعم الطفل ، تتضاعف هذه التقلصات في شدتها الى أن يمحوها التعب • وسيموت الطفل حتما بعد فترة بفعل الجوع •

وليس الطفل الجائع مزودا بالافعال المنعكسة الضرورية التى يشبع بها جوعه ، وما لم يتدخل شخص أكبر يجلب له الطعام فهو هالك لا محالة• وحين يحمل الطعام في صورة مستساغة الى فم الطفل تتولى الافعال المنعكسة الخاصة بالمص والبلع والهضم مهامها ، وتقضي على التوتر الناشيء عـن الجوع •

ولن يكون هنالك نمو سيكولوجي اذا كان الطفل في كـل مرة يستشعر فيها توتر الجوع ، يطعم فورا ، واذا كانت سائر الاثـارات الناشئة في البدن يقضي عليها بالمثل بالتضافر بين الجهود التي يبذلها الاب والام والافعال المنعكسة الفطرية • ومهما يكن من أمر ، فانه بالرغم من يقظة الوالدين وعنايتهما ، فانهما لا يستطيعان أن يتنبآ بحاجات الطفل جميعها وبعملا على ارضائها • والواقع انه باستخدام البيانات ، والاستعانـة بالاحصائيات ، والالتجاء الى الانظمة والتدريب والنصائح يخلق الاطفال من التوترات مثلما يخففون من حدتها • ولا مفر من أن يمارس الطفل درجة ما من الاحباط والضيق • وهذه التجارب تحفز نمو الهو •

والنمو الجديد الذي يحدث في الهو كنتيجة للاحباط يدعى العملية الاولى • ولكى نفهم طبيعة العملية الاولى يلزم أن تتناول بالتحليل بعض

القوى النفسية في الكائن الانساني • فللجهاز النفسي هدفان احدهما حسي والآخر حركي • والهدف الحسي يتألف من أعضاء الحس ، وهو بمثابة بنيات متخصصة لاستقبال المؤثرات ؛ ويتألف الهدف الحركي من العضلات وهي أعضاء الفعل والحركة • ولا يلزم للفعل المنعكس الا أعضاء الحس ، والعضلات ، وجهاز عصبي لينقل الرسائل في صورة دوافع عصبية من الهدف الحسي الى الهدف الحركي •

ويملك الفرد بالاضافة الى الجهاز الحسي والجهاز الحركي جهازا للادراك وجهازا للذاكرة • ويستقبل الجهاز الادراكي الاثارات الواردة من أعضاء الحس ويشكلها في صورة عقلية أو في تصور للموضوع الماثل لاعضاء الحس •وتحفظ هذه الصور العقلية باعتبارها آثارا للذاكرة في جهاز الذاكرة وحين تنشط آثار الذاكرة يقال ان الشخص لديه صورة ذاكرة عن الموضوع الذي أدركه في الاصل • وبواسطة صور الذاكرة ينقل الماضي الى الحاضر • والادراك هو تمثل عقلي لموضوع من الموضوعات بينما صورة الذاكرة هي التمثل العقلي للادراك • فحين ننظر الى شيء في العالم ، يتألف ادراك ، وحين تتذكر ما رأيناه مرة تتشكل صورة ذاكرة •

ولنعد الآن الى حالة الطفل الجائع • ففي الماضي كان الطفل حالما يحس الجوع يطعم • وفي أثناء اطعامه يرى الطفل ويذوق ويشم ، ويحس بالطعام ، وتختزن هذه الادراكات في جهاز ذاكرته • وبالتكرار يرتبط الطعام بتخفيف التوتر • وبعد ذلك اذا لم يطعم الطفل فورا ، يولد توتر الجوع صورة ذاكرة للطعام يرتبط بها • وعلى ذلك توجد في الهو صورة للموضوع • وهذه الصورة قادرة على تخفيف توتر الجوع • والعملية التى تولد صورة ذاكرة لموضوع مطلوبة لتخفيف التوتر ، ويطلق عليها العملية الاولى •

وتنزع العملية الاولى الى القضاء على التوتر ، بتثبيت مـا يسميه « فرويد »هُوِيّة الادراك . ويعنى « فرويد » بهوية الادراك أن الهو يعتبر صورة الذاكرة عدلاً للادراك ذاته ، ذلك لان ذكرى الطعـام هى بالنسبة للهو مثيل للطعام ذاته . وبعبارة أخرى ، تفشل الهو في التمييز بين صورة الذاكرة الذاتية ، وبين الادراك الموضوعي للموضوع الواقعى . وثمة مثل مألوف لعمل العملية الاولى ، مثل الرحالة العطشان حين يتخيل أنـه يرى الماء . ومثل آخر حلم الليل : فالحلم هو تتابع لصور تكون في العادة بصرية في كيفيتها . ووظيفة هذا التتابع تخفيف التوتر باحياء ذكريـات احداث وموضوعات ماضية مرتبطة بطريقة ما باشباع . فالنائم الجائع يحلم بالطعام وبالاشياء المرتبطة بعملية الاكل ، بينما المتهيج جنسيا ، يحلم بنشاط جنسي وما يتصل به من أحداث . ان تشكيل صورة لموضوع مخفف للتوتر يسمى اشباع الرغبة . وقد اعتقد « فرويد » أن جميع الاحلام هى اشباع للرغبات او محاولة لاشباع الرغبات . فنحن نحلم بما نرغب فيه .

ومن الجلى ان الشخص الجائع لا يستطيع ان يعد وجبة طعام من صور ، كما لا يستطيع الشخص العطشان أن يروى عطشه بشرب مـاء متخيل . وفي حالة الحالم يعتقد « فرويد » أن الحلم بموضوعاته وأحداثه المرغوب فيها قد يؤدي الغرض بمنع النائم من اليقظة . وحتى في حيـاة اليقظة نجد العملية الاولى ليست معدومة الفائدة اطلاقا ، ذلـك أن من الضروري للانسان ان تكون لديه صورة عما يحتاج اليه قبل أن يسعى للحصول عليه . فالشخص الجائع الذي لديه تمثل عقلى للطعام ، هو في حالة أفضل لاشباع جوعه من الشخص الذي لا يعرف ما هو باحث عنه . ولو لم تكن العملية الاولى للجأ الانسان في اشباع حاجاته الى سلـوك المحاولة والخطأ الذي لا هدف له . ولما كانت العملية الاولى وحدها لا تؤدي الى تخفيف التوتر تخفيفا فعالا ، فثمة نمو لعملية ثانية ؛ بيد أن هذه

تنتمى الى الانا ، ولذلك سنتناولها بالفحص في القسم التالى من هــذا الفصل •

ويرى « فرويد » أن « الهو » هو المنبع الاوّلى للطاقة النفسية وهو قاعدة للغرائز [1] • والهو محتك احتكاكا أوثق بالبدن وعملياته منه بالعالم الخارجي • وطاقة الهو في حركة ثابة ، بحيث تستطيع أن تبادر بالانتقال من موضوع الى موضوع آخر • والهو لا يتغير مع الزمن ، ولا يتعدل بالتجربة ، لانه لا يحتك بالعالم الخارجى • ومع ذلك فيمكن للانا أن يتحكم فيه وينظمه •

ولا تحكم قوانين العقل والمنطق الهو ، فالهو لا يملك قيما اخلاقية• وانما هو مساق باعتبار واحد فقط ، هو الحصول على اشباع للحاجات الغريزية بما يتفق ويتلاءم مع مبدأ اللذة •

وثمة طريقان ممكنان فقط لاية عملية من عمليات الهو • اما أن تنصرف بالفعل أو باشباع الرغبة ، او تخضع لنفوذ الانا ! وفي هذه الحالة تعلق طاقتها وتحجز بدلا من أن تنصرف فورا •

ويتحدث « فرويد » عن الهو على أنه الواقع النفسانى الحقيقي ؛ وهو يعنى بهذا أن « الهو » ، هو الواقع الذاتى الاول ، هو العالم الباطنى الذي يوجد قبل أن تتهيأ للفرد تجربة بالعالم الخارجى • وليست الغرائز والافعال المنعكسة فطرية فحسب ، وانما الصورة التي تولدهــا حالات التوتر يمكن أيضا أن تكون فطرية • وهذا يعنى أن الطفل الجائع يمكن أن يتخيل صورة للطعام دون أن يكون بحاجة الى تعلم ربط الطعــام

---

(١) نناقش الطاقة والغرائز في الفصل الثالث: «ديناميات الشخصية»

بالجوع • ويعتقد « فرويد » ان التجارب التى تتكرر مرارا عديدة وبشدة في كثير من الافراد في أجيال متعاقبة تغدو احتياطيا ثابتا « للهو » • وتنضاف احتياطيات جديدة للهو خلال حياة الفرد نتيجة لميكانيزم الكبت [1] •

و « الهو » ليس شيئا اثريا منذ مستهل تاريخ الاجناس ، وانما هو أيضا أثرى في حياة الفرد • هو الاساس الذي تبنى عليـــه الشخصية • و « الهو » يحتفظ بطابعه الطفولى مدى الحياة • وهو لا يطيق التوتر وانما يبغى اشباعا فوريا • و « الهو » مطالب مندفع ، لا يخضع لمنطق العقل ، نفور من المجتمع ، انانى ، عاشق للذة • هو الطفل المدلل الكامن فـــي الشخصية • وهو عارم القوة ؛ فلديه العصا السحرية التي يستطيع بهـــا اشباع رغباته بالخيال ، وبالمخيلة وبالهلوسة والاحلام • وقد قيل انه محيط مثل البحر ، فهو يحوز كل شيء ، ولا يعترف بشيء آخر خارج عنه • الهو هو عالم الواقع الذاتى ، تشغله وظيفتان فحسب : السعى الى اللـــذة ، وتجنب الالم •

ويقر « فرويد » بأن « الهو » هو ذلك الجانب الغامض من الشخصية الذي لا سبيل للوصول اليه • والقليل الذي نعرفه عنه تعلمناه من دراسة الاحلام ومن الاعراض العُصابية • ومع ذلك يمكننا أن نرى « الهو » في عمله حيثما أدى الشخص عملا اندفاعيا • فالشخص الذي يفعل بناء على دافع لقذف طوبة من النافذة ، أو « يشنكل » آخر أو يغتصب امرأة ، انما يخضع لسيطرة « الهو » • وبالمثل الشخص الذي ينفق فترة كبيرة في أحلام اليقظة في بناء الحصون في الهواء ، يتحكم فيه « الهو » • ان « الهو » لا يفكر ؛ « الهو » يرغب أو يعمل فقط •

---

(١) نناقش الكبت في الفصل الرابع : « نمو الشخصية » .

٥ ـ الأنا :

العمليتان اللتان يصرّف بهما « الهو » التوتر ، أعنى النشاط الحركى الاندفاعي وتشكيل الصورة ــ أي اشباع الرغبة ــ ، لا تكفيان لتحقيق الاهداف التطورية العظيمة للبقاء والاتتاج • فلا الرغبات ولا الافعال المنعكسة ، لا هذه ولا تلك تزوّد الشخص الجائع بالطعام أو الشخص المتهيج جنسيا بخليلة • والواقع أن السلوك الاندفاعى قد يزيد من التوتر والالم ، اذ يجلب العقاب من العالم الخارجى • وما لم يكن للانسان من يرعاه ، كما كان شأنه وهو طفل ، فعليه أن يبحث عن الطعام ويجده ، وعن أليفه ، وأن يحقق أهدافا أخرى ضرورية لحياته • ولكى ينجز هذه المهام بنجاح ، لا بد له من أن يدخل في اعتباره العالم الخارجى ، أعنى «البيئة» • وبتكييف ذاته لها ، أو بالتحكم فيها ، يحصل من العالم على ما يحتاج اليه• هذه الاعمال المتبادلة بين الانسان والعالم تقتضي تشكيل جهاز نفسي جديد ، أعنى « الأنا » •

وفي الشخص السوى نجد أن « الأنا » هو الجهاز التنفيذي للشخصية ، وهو الذي يتحكم في « الهو » و « الأنا الأعلى » ويدبر شئونهما ، وهو الذي يحفظ الاتصال بالعالم الخارجى ، من أجل مصالح الشخصية كلها ومطالبها البعيدة • وحين ينجز « الأنا » وظائفه التنفيذية بحكمة ، يسود الانسجام ويعم الاتزان • وحين يستسلم « الأنا » « للهو » أو « للأنا الأعلى » ، أو للعالم الخارجى ، أو يتنازل عن كثير من سلطته لأي منهما ، ينجم عن ذلك الاضطراب والشذوذ •

ويحكم « الأنا » مبدأ الواقع بدلا من مبدأ اللذة • والواقع يعنى : ما هو هو موجود بالفعل • وهدف مبدأ الواقع تصريف الطاقة الى حين اكتشاف الموضوع الذي يرضي الحاجة ، أو انتاجه • مثل ذلك ، أن على

الطفل أن يتعلم كيف يميز الطعام ، وكيف يكفّ عن الغذاء الى أن يوضع في فمه الشيء المختار ، والا فانه سيعانى بعض التجارب المؤلمة .

وارجاء الفعل ، يعنى أن على « الأنا » احتمال التوتر الى أن يكون في الامكان تصريفه بصورة مناسبة من صور السلوك . وقيام مبدأ الواقع لا يعنى التخلى عن مبدأ اللذة ، وانما يعلق مبدأ اللذة مؤقتا من أجل مبدأ الواقع . ولا يلبث مبدأ الواقع ان يقود الى اللذة ، وان كان على الشخص أن يحتمل بعض الضيق وهو يبحث عن الواقع .

ويتولى خدمة مبدأ الواقع عملية يسميها « فرويد » بالعملية الثانية ، ذلك لانها تنمو عقب العملية الأولى الخاصة بالهو . ولكى نفهم ما يعنيه فرويد بالعملية الثانية يلزم أن نرى اين تصل العملية الاولى بالفرد في الحصول على اشباع لحاجاته . انها تصل به فقط الى حيث يشكل صورة للموضوع الذي يشبع حاجاته . والخطوة التالية هى الحصول على هذا الموضوع أو انتاجه . أعنى اخراجه الى حيز الوجود . هذه الخطوة تنجزها العملية الثانية . والعملية الثانية تتمثل في الكشف عن الواقع أو انتاجه بواسطة خطة للعمل تنمو من خلال الفكر والمعرفة . والعملية الثانية ليست الا ما نطلق عليه ـــ عادة ـــ حل مشكلة أو التفكير فيها .

حين يضع شخص خطة للعمل موضع التنفيذ لكى يرى ما اذا كان ثمة جدوى منها او لا جدوى وراءها ، يقال عنه حينئذ انه يقوم باختبار الواقع ، واذا لم يُجد الاختبار ، أعنى اذا لم يصل الشخص الى اكتشاف الموضوع المرغوب فيه أو خلقه ، فان ثمة خطة جديدة للعمل يصل اليها بالفكر ويضعها موضع الاختبار . ويتصل هذا المجهود الى أن يعثر على الحل الصحيح (أي الواقع) ، وينصرف التوتر بفعل ملائم ، وفي حالة الجوع ، الفعل الملائم هو الطعام المفيد .

وتنجز العملية الثانية ما تعجز العملية الاولى عن انجازه ، أعنى الفصل بين العالم الذاتى القائم في الذهن ، والعالم الموضوعى المتمثل في الواقع المادى . والعملية الثانية لا ترتكب الخطأ لذي تقع فيه العملية الاولى . أعنى النظر الى صورة الموضوع كما لو كانت هى الموضوع نفسه .

ان ظهور مبدأ الواقع ، ونهوض العملية الثانية بعملها وذلك الدور الذي يلعبه العالم الخارجي في حياة الفرد ، ويزيدها معنى ومغزى ، يحفز نمو العمليات النفسية من ادراك وذاكرة وتفكير وعمل ، واتقانها .

والجهاز الادراكى يُنمّى قوى التمييز بحيث يدرك العالم الخارجي بدقة أعظم ، ووضوح أكبر . ويتعلم الجهاز الادراكي ان ينعم النظر في العالم بسرعة ، ويختار بين المنبهات المتقلبة ، تلك القسمات الكامنة في البيئة التى تلائم وحدها المشكلة التى يبغى حلها . وبالاضافة الى المعلومات التى نجنيها خلال أعضاء الحس ، ينتفع الفكر بالمعلومات المختزنة في الذاكرة ، وتتقدم الذاكرة بفضل التداعى الذي يربط بين آثارها ، وبفضل نمو جهاز التمييز ، أعنى اللغة . ويغدو حكم الفرد أدق بحيث يتيسر له ان يصل الى قرارات حاسمة يقطع فيها بصحة شيء ، أي بأنه موجود ، أو ببطلانه ، أي بأنه غير موجود . وثمة سلسلة هامة أخرى من التغيرات تشغل مكانها في الجهاز الحركى : فان الشخص يتعلم كيف يستخدم عضلاته استخداما ابرع ، ويؤدي أنماطا من الحركة أشد تعقيداء هذا التكيّف في الوظائف النفسية ، يمكّن الشخص من أن يسلك سلوكا أكثر ذكاء وأشد فاعلية ، وأن يتحكم في دوافعه وفي بدنه من أجل قدر أكبر من الاشباع واللذة . ويمكن أن نعتبر « الأنا » تنظيما معقدا للعمليات النفسية يؤدي عمله كوسيط بين الهو وبين العالم الخارجى .

وبالاضافة الى العمليات التي تتولى خدمة الواقع ، ثمة وظيفة « للأنا » تشبه العملية الاولى « للهو » . هذه الوظيفة هى التي تولد

الاوهام واحلام اليقظة • فهى متحررة من مطالب امتحان الواقع ، وتابعة لمبدأ اللذة • ومع ذلك فان هذه العملية التى ينهض بها « الأنا » تختلف عن العملية الاولى لانها تميز بين الخيال وبين الواقع ، وليس الامر كذلك في العملية الاولى • والخيالات التى يولدها « الأنا » معروفة على وضعها ، أي أنها تخيلات للتسرية واللذة • ومع أننا لا نخلط بينها وبين الواقع ، فانها تزود المرء باجازة مما في عمل الانا من جدّ ومشقة •

ومع أن « الأنا » في أعظم جزء منه متولد عن التفاعل مع البيئة ، فان خط نموّه يعزى للوراثة وترشده وتوجهه عمليات النمو • وهذا يعنى أن لكل شخص قوى فطرية للتفكير والتعقل • ويتم تحقيق هذه الامكانيات بفضل التجربة والخبرة والتربية • وكل تربية هدفها الرئيسي هو تعليم الناس كيف يفكرون تفكيرا أشد فاعلية • والتفكير الفعال يتلخص في أن يكون الانسان قادرا على الوصول الى الحقيقة من حيث ان تعريف الحقيقة هو : ما هو موجود •

٦ ــ الأنا الأعلى :

والجهاز الثالث الرئيسي من أجهزة الشخصية هو « الأنا الأعلى » • هو ذلك الجانب الأخلاقى القضائي من جوانب الشخصية ، وهو أقرب الى تمثيل المثالى منه الى تمثيل الواقعى • وهو ساع من أجل الكمال أشد منه ساعيا من أجل الواقع أو اللذة • ان « الانا الاعلى » هــو القانون الأخلاقي للانسان • وهو ينشأ من الأنا ، كنتيجة لتشبه الطفل بالمقاييس التي يقيس بها والداه ما هو خير ، وما هو شر ، ما هو فاضل ، وما هو راذل • واذ يتشبه الطفل بسلطة والديه الاخلاقية يحل سلطته الباطنيــة الخاصة به محل سلطتهما • وهذا الاحلال للسلطة الأبوية يمكّن الطفل من أن يضبط سلوكه في خط متوافق مع رغبات الوالدين ؛ وهو يفعل ذلك

ليضمن رضاهما ويتجنب ضيقهما وبرمهما • وبعبارة أخرى ، لا يتعلم الطفل أنه ملتزم باطاعة مبدأ الواقع لكى يحصل على اللذة ويتجنب الألم فحسب ، وانما يمكن أيضا ان يحاول أن يسلك بما يتفق مع أوامر والديه الاخلاقية • والفترة — الطويلة نسبيا — التى يكون الطفل فيها معتمدا على والديه ، تعين على تشكيل « الأنا الأعلى » •

ويتألف « الأنا الأعلى » من جهازين فرعيين : الانا المثالى ، والضمير• فالأنا المثالى يطابق تصورات الطفل بصدد ما يعتبره والداه خيرا أخلاقيا • وينقل الوالدان مقاييسهما عن الفضيلة الى الطفل بمكافأته على كل عمل يسير فيه على الصراط الذي تحدده مقاييسهما • فمثلا اذا كوفىء لانه يواظب على النظافة والنظام ، فان النظافة تصبح مثلا أعلى من مثله العليا • أما الضمير فهو يطابق تصورات الطفل بصدد ما شعر والداه بأنه امر سيء أخلاقيا ، وتستقر هذه التصورات من ثنايا تجارب العقاب • فاذا كان قد عوقب كثيرا لقذارته ، فانه يعتبر القذارة شيئا سيئا • واذا شبهنا الاخلاق بقطعة العملة لكان الانا المثالى هو أحد وجهيها والضمير هو الوجه الآخر •

فما هى المثوبات والعقوبات التى يضبط بها الوالدان تشكيل « الأنا الأعلى » عند الطفل ؟ هنالك نوعان : نوع مادى وآخر نفسي • فالمثوبات المادية تتألف من الأشياء التى يرغب فيها الطفل ، مثل الطعام واللعب ، وملاطفات الأب والأم ، والحلوى • والعقوبات المادية هى التعدى المؤلم على جسم الطفل ، من قبيل الصفع وحرمانه من الأشياء التى يريدها • وتتمثل المثوبة النفسية الرئيسية في ذلك الرضي الذي يعبر عنه بالعبارة أو بالاشارة ، فالرضى علامة على الحب • وبالمثل انتفاء الحب هو الشكل الرئيسي للعقوبة النفسية ، ويعبر عن ذلك بالزجر أو بنظرات الاستياء •

وبالطبع قد تعنى المثوبات والعقوبات المادية أيضا الحب أو انتفاء الحب بالنسبة للطفل • فالطفل الذي تلقى الصفعة لا يجرح فحسب ، بل قد يشعر أيضا أن معاقبه قد نبذه وحرمه من حبه • وأيا ما كان فان حَبو الطفل بالعطف أو حرمانه منه له السلطة الاولى على الطفل من حيث علاقة ذلك باشباع حاجاته الأساسية أو عدم اشباعها • فالطفل يرغب في حب أمـه لأنه تعلم أن الأم التي لا تحب قمينة أن تحرمه من الطعام ، ومن ثم تطيل أمه حالة مؤلمة من التوتر • وبالمثل يحاول الطفل ان يتجنب اثارة استياء والده لأنه تعلم أن الوالد المستاء قد يخلق له حالة مؤلمة بصفعه • والمثوبات والعقوبات هى في نهاية مطاف التحليل ، أيا كانت منابعها ، شروط لتخفيف التوتر الباطنى أو زيادة حدّته •

ولكى يكون « للأنا الأعلى » نفس الاشراف الذي للوالدين على الطفل يلزم أن يكون له سلطة فرض قواعده الاخلاقية • و « الأنا الأعلى » مثل الوالدين يفرض قواعده بالمثوبات والعقوبات • وهـذه المثوبـات والعقوبات توقع على الأنا ، لأن « الأنا » من حيث أنه مشرف على أفعال الانسان ، مسئول عن حدوث الافعال الاخلاقية والمنافية للأخلاق • واذا كان الفعل متوافقا مع المقاييس الاخلاقية « للأنا الأعلى » كوفىء « الأنا » • ومهما يكن من أمر ، فليس من الضروري « للأنا » أن يسمح بوقوع فعل بدنى لكى يجازي او يعاقب بواسطة « الأنا الأعلى » • فقد يجازى الأنا أو يعاقب لمجرد التفكير في فعل شيء ما • فان التفكير في شيء كفعله سواء بسواء في نظر « الأنا الأعلى » ، وفي هذا الصدد يشبه « الأنا الأعلى » « الهو » الذي لا يميز أيضا بين الذاتى والموضوعي • ويفسر لنا هذا لمَ أن فردا يحيا حياة فاضلة ، قد يعانى مع ذلك كثيرا من وخز الضمـير • ان « الأنا الأعلى » يعاقب « الأنا » على مجرد التفكير أفكارا سيئة ، حتى ولو لم تترجم هذه الافكار بتاتا الى أفعال •

فما هى المثوبات والعقوبات الواقعة في متناول « الأنا الأعلى » ؟ قد تكون مادية وقد تكون نفسية • فقد يُسرّ « الأنا الأعلى » للشخص الذي سلك الفضيلة : « الآن وقد كنت فاضلا زمنا طويلا ، سيسمح لك بالترويح عن نفسك وقضاء وقت طيب » • قد يكون ذلك بوجبة غالية الثمن ، أبو براحة طويلة أو باشباع جنسي • فالأجازة مثلا ، تعتبر عادة ، ثوابا على عمل شاق •

وللمذنب أخلاقيا قد يُسرّ « الأنا الأعلى » بقوله : « الآن ، وقد كنت سيئا ستعاقب بأن يحدث لك أمر لا يرضي » وقد يكون ذلك باضطراب في المعدة ، أو اهانة ، او فقدان شيء ثمين •

هذه الفراسة التى نفذ بها « فرويد » الى نشاط الشخصية الانسانية ذات النشاط المعقد الماهر ، هى التى تكشف عن سبب هام من أسباب احساس الناس بالوعكة وارتكابهم للحوادث ، وفقدانهم للأشياء • ان جميع الكوارث قد تنطوى ــ في قدر كبير أو صغير ــ على عقوبة ذاتية لارتكاب وزر من الاوزار • من الأمثلة على ذلك تحطم سيارة شاب في حادث بعد قليل من اتصاله اتصالا جنسيا بفتاة • ولا يكون الانسان ، بالطبع ، على بينة من الصلة بين الضمير المذنب وبين وقوع حادث •

والمثوبات والعقوبات النفسية التي يستخدمها « الأنا الأعلى » ، هى مشاعر بالكبرياء أو بالذنب والنقص على التوالى • فان « الأنا » يزدهى بالكبرياء حين يسلك سلوكا فاضلا أو يفكر أفكارا فضلى ، ويحس الخجل من ذاته حين يخضع للاغراء • والكبرياء يعادل حب الذات والذنب والنقص يعادل كراهية الذات • وهى التمثلات الباطنية للحب وللهجر الأبويين •

و « الأنا الأعلى » يمثل في الشخصية القيم التقليدية ، والمثل العليا

في المجتمع كما تنتقل من الآباء الى الأبناء • وبهذا الصدد ينبغى أن يركز في ذهننا ان « الأنا الأعلى » عند الطفل ليس انعكاسا لسلوك الاباء بل هو بالأحرى انعكاس « للأنا الأعلى » عند الاباء • فالراشد قد يقول شيئا ويفعل شيئا آخر ، ولكن ما يقوله معززا بالوعد والوعيد هو الذي يكون له وزنه في تشكيل المقاييس الأخلاقية عند الطفل • وهنالك بالاضافة الى الآباء ، أشخاص آخرون في المجتمع يساهمون في تشكيل «الأنا الأعلى» عند الطفل • فالمعلمون ، والوزراء ، ورجال الشرطة — وفي الواقع أي شخص يكون في منزلة السلطة بالنسبة للطفل — يمكن أن يكون لهم مع ذلك من الدور ماللآباء • وردود الطفل على هذه الأشكال من السلطة يحددها الى حد بعيد المدى ، تشبهه في سن مبكرة بوالديه •

فلنتساءل أي غرض يحققه « الأنا الأعلى » ؟ الغرض الاول هو ضبط وتنظيم تلك الدوافع التي يؤدى افلاتها من كل ضابط الى تعريض استقرار المجتمع للخطر • هذه الدوافع هى الجنس والاعتداء • فالطفل العاصي المتمرد أو الفضولى جنسيا ، يعتبر سيئا لاأخلاقيا • والراشد المشوش جنسيا أو الذي يخرق القوانين ، وينزع عموما الى الهدم ، والى النفور من الجماعة يعتبر شخصا شريرا • و « الأنا الأعلى » اذ يكبح باطنيا جماح عدم المبالاة بالقانون والفوضى ، يمكن الفرد من أن يصبح عضوا في المجتمع حافظا للقانون •

واذا نظر الى « الهو » على أنه نتاج التطور ، وعلى أنه الممثل النفسي للقوى البيولوجية للفرد ، و « الأنا الأعلى » على أنه نتيجة التفاعل مع الواقع الموضوعى والعمليات العقلية العليا ، ثمتئذ يمكن أن نقول ان « الأنا الأعلى » هو نتاج التنشئة الاجتماعية للفرد ، وهو مركبة العرف الحضارى •

وينبغى أن يركز في ذهن القارىء أن ليس ثمة حدود قاطعة بين هذه الاجهزة الثلاثة • فان اختلافها في الأسماء لا يعنى أن لكل منها كيانا منفصلا عن كيان الآخر • ان كلمات « الهو » و « الأنا » و « الأنا الأعلى » ، لا تعنى أي شيء في ذاتها ، بل لا تعدو أن تكون طريقة مختزلة للدلالة على عمليات ووظائف وميكانيزمات وديناميات مختلفة ، قائمة في الشخصية في مجموعها •

ان « الأنا » ينجم عن الهو ، و « الأنا الأعلى » ينشأ من « الأنا » • وهى جميعها تتبادل التفاعل والامتزاج طوال الحياة • هذا التفاعل والامتزاج مثله مثل التعارض القائم بين هذه الاجهزة الثلاث ، هو موضوع بحثنا في الفصل التالى •

الفصل الثالث

ديناميات الشخصية

تناولنا في الفصل السابق تكوين الشخصية ، وقمنا بوصف بعض العمليات والوظائف الجوهرية لمناطقها الثلاث : « الهو » و « الأنا » و « الأنا الأعلى » • وغرضنا في هذا الفصل أن نبين كيف تعمل هـذه الاجهزة الثلاثة وكيف تتفاعل فيما بينها من ناحية ، وفيما بينها وبين البيئة من ناحية أخرى •

★★★

٧ ـ الطاقة النفسية :

ان الكائن العضوى الانسانى ، هو جهاز معقد من الطاقة ، يستمد طاقته من الغذاء الذي يتناوله ، ويصرفها لاغراض مثل الدورة الدموية ، التنفس ، الهضم ، السلوك العصبى ، النشاط العضلى ، الادراك ، التذكر ، التفكير • وليس ثمة سبب للاعتقاد في أن الطاقة التى تدير الكائن العضوى تختلف في جوهرها عن تلك التي تدير العالم• وتتخذ الطاقة أشكالا عديدة، فهى ميكانيكية ، حرارية ، كهربية وكيمائية ، وهى قادرة على أن تتحول من شكل من هذه الاشكال الى شكل آخر • ويطلق على الطاقة التى تحرك أجهزة الشخصية الثلاثة ، الطاقة النفسية • وليس ثمة الغاز او شيء خارق

للطبيعة في تصور الطاقة النفسية • فهى تنجز العمل ، او هى قادرة على انجاز عملها كما يفعل أي شكل من أشكال الطاقة الاخرى • فالطاقة النفسية تنجز العمل النفسي ـ أعني الادراك والتذكر والتفكير ـ كما تنجز الطاقة الميكانيكية العمل الميكانيكى •

ويمكننا أن نتحدث عن تحول الطاقة البدنية الى طاقة نفسية ، كما نتحدث عن تحول الطاقة النفسية الى طاقة بدنية • فهنا تجرى التحولات باستمرار • فنحن نفكر (طاقة نفسية) ثم نعمل (طاقة عضلية) أو تنبهنا موجات صوتية (طاقة ميكانيكية) فنسمع (طاقة نفسية) أحدهم يتحدث • أما كيف تجرى هذه التحولات ، فهذا ما ليس لنا به علم •

٨ ـ الغريزة :

والطاقة المستخدمة في انجاز عمل الشخصية مستمدة كلها من الغرائز• وتعرف الغريزة بأنها حالة فطرية تحدد الاتجاه للعمليات السيكولوجية • فالغريزة الجنسية مثلا ، توجه العمليات السيكولوجة ، الخاصة بالادراك، والتذكر ، والتفكير نحو هدف ، هو اشباع الرغبة الجنسية • فالغريزة هى بمثابة نهر يجري في مجرى خاص •

وللغريزة منبع وهدف وموضوع ودافع • والحاجات البدنية أو الدوافع هى المنابع الرئيسية للطاقة الغريزية • فالحاجة أو الدافع هى عملية مثيرة في نسيج من أنسجة البدن أو عضو من أعضائه ، تطلق الطاقة المخزونة في الجسم فمثلا : الحالة المادية للجوع تنشط غريزة الجوع بتزويدها بالطاقة • ومن ثم توجه هذه الطاقة الغريزية العمليات النفسانية الخاصة بالادراك والذاكرة والتفكير • فيبحث الانسان عن الطعام ، ويحاول أن يتذكر أين وجد الطعام في مناسبات سابقة ، أو يضع خطة لفعل يمكن به الحصول على الطعام •

والهدف النهائي لغريزة من الغرائز هو محو حاجة بدنية • فهدف غريزة الجوع مثلا ، القضاء على الحالة المادية للجوع • وحين يتم ذلك ، لا تنطلق أية طاقة بدنية أخرى ، وتختفى غريزة الجوع ويعود الفرد الى حالة الراحة الفسيولوجية النفسية • واذا عبرنا عن ذلك بطريقة أخرى ، لقلنا ان هدف غريزة من الغرائز هو القضاء على منبعها •

ولاحظ « فرويد » أن هناك بالاضافة الى الهدف النهائي وهـو الراحة ، غايات ثانوية لا بد من اشباعها قبل امكان بلوغ الغاية النهائية • فقبل امكان تهدئة الجوع ، يلزم العثور على الطعام وايصاله الى الفم • فالعثور على الطعام وتناوله أمران لاحقان بالقضاء على الجوع • ويطلق « فرويد » على الهدف النهائي للغريزة ، الهدف الباطنى ، وعلى الاهداف الثانوية الاهداف الخارجية •

ويقال عن الغريزة انها محافظة ، لان هدفها هو العودة بالشخص الى حالة الراحة التى كانت سابقة على الاضطراب المترتب على عمليـة الاثارة والتنبيه •

ومجرى الغريزة يمضي دائما من التوتر الى الاسترخاء • وفي بعض الحالات ، وبخاصة في حالة اشباع الدافع الجنسي ، ترتفع درجة التوتر قبل تحقيق الراحة النهائية • ولا ينفى هذا ، بأي حال ، المبدأ العام لعمل الغريزة ، ذلك لان الهدف الاخير للجنس ، هو التخلص من الاثارة بصرف النظر عما اذا كان هنالك زيادة في التوتر تسبقه الراحة النهائية • والواقع أن الناس يتعلمون كيف يختزنون قـدرا كبيرا من التوتر ، ذلـك لان الانطلاق الفجائي لكميات عظيمة من التوتر تزودهم بلذة عظيمة •

وبعبارة أخرى ، ان الغريزة ، تحاول دائما أن ترجع بنا الى حالـة

سابقة . هذه النزعة في الغريزة ، لتكرار العودة من الاثارة الى الهدوء مرة بعد أخرى ، تسمى التقلص التكرارى . وثمة أمثلة عديدة على التقلص التكراري في حياتنا اليومية . فالمراحل المنتظمة المتعاقبة لليقظة التي يعقبها النوم هى مثل على ذلك . ومثل ثان هو تناول ثلاث وجبات من الطعام في اليوم . ومثل ثالث هو أن الرغبة الجنسية يعقبها اشباع جنسي .

مجمل القول اذن ، أن هدف غريزة من الغرائز له طابع محدّد ، هو أن تكون الغريزة محافظة متراجعة متكرّرة .

موضوع الغريزة هو الموضوع أو الوسيلة التي يتحقق بها الهدف . فموضوع غريزة الجوع هو تناول الطعام ، وموضوع الغريزة الجنسية هو الجماع ، وموضوع غريزة الاعتداء هو القتال . والموضوع او الوسيلة هو أشد قسمات الغريزة تنوّعا ، ما دامت هنالك موضوعات ووجوه نشاط عديدة مختلفة يمكن أن يشغل كل منها مكان الآخر . وتنمية ونضج الوسائل التى تحقق بها الغرائز هدفها المتمثل في تخفيف حدّة التوتر يؤلف ـ كما سنرى في الفصل الرابع الخاص بنمو الشخصية ـ أحد الطرق الرئيسية في نمو الشخصية .

ان دافع الغريزة هو قوتها وفتوتها ، ويحدد ذلك كمية الطاقة التي تملكها . فالجوع الشديد يفرض على العمليات النفسية دافعا أعظم من ذلك الذي يفرضه جوع ضعيف . فحين يشتد بالانسان الجوع يتركز ذهنه على الطعام الى حد يستبعد معه أي شيء آخر . وبالمثل حين يحب الانسان حبا شديدا ، من الصعب عليه أن يفكر في شيء آخر .

ومقر الغرائز « الهو » . وما دامت الغرائز تؤلف الكمية الكلية للطاقة النفسية ، « فالهو » بمثابة المستودع الاصلى للطاقة النفسية .

ويقتضي تشكل « الأنا » و «الأنا الأعلى» سحب الطاقة من هذا المستودع.
أما كيف يتم هذا السحب ، فهذا موضوع حديثنا في الفصل التالى .

٩ ـ توزيع الطاقة النفسية وتصريفها :

(أ) في الهو : تستخدم طاقة « الهو » في الاشباع الغريزي بواسطة الفعل المنعكس واشباع الرغبة . ففى الفعل المنعكس ـ كما يتمثل في تناول الطعام ، وفي افراغ المثانة وفي الانتصاب الجنسي ـ تنصرف الطاقة انصرافا آليا الى فعل حركى . وفي اشباع الرغبة تستخدم الطاقة لانتاج صورة للموضوع الجنسي . وغاية كلا العمليتين هو انفاق الطاقة الغريزية بطرائق تقضي على الحاجة وتجلب للفرد الهدوء والراحة .

والانتفاع بالطاقة في صورة موضوع أو اطلاق الطاقة في فعل تصريفى خاص بموضوع يؤدي الى اشباع غريزة ، يسمى اختيار الموضــوع أو الشحنة الانفعالية الخاصة بموضوع . وكل الطاقة الموجودة في الهو تنفق على الشحنات الانفعالية الخاصة بموضوع.

والطاقة التى يستثمرها « الهو » في اختيارات الموضوع طاقة سيّالة جدا . وهذا يعنى أن في الوسع تحويلها بسهولة من موضوع الى آخر . هذا التحويل للطاقة يسمى بالنقل أو الابدال . وعلى ذلك فاذا لم يكن الطعام في متناول اليد يمكن للطفل أن يضع في فمه قطعة خشب أو يده نفسها . فالطفل قبل أن يتعلم التمييز يجد أن الطعام وقطعة الخشب ويده كلها سواء . فالموضوعات ينظر اليها على أنها متعادلة حين يكون بينهـــا تشابه نوعى مشخّص . فشيئان مثل زجاجة اللبن وكتلة من الخشب ، يمكن ادراكهما على أنهما شيء واحد لأن كليهما يمكن تناوله باليد ومده للفم . ان طاقة « الهو » متنقلة الى حد بعيد ، لان « الهو » عاجز عـــن القيام بالتمييز الدقيق بين الموضوعات .

والنزعة لمعالجة الموضوعات كما لو كانت شيئا واحدا ، بالرغم من الفوارق القائمة بينها ، تولد صورة شائهة من التفكير ، يسمى التفكير الاسنادى • فحين يتعادل موضوعان في ذهن شخص ، مثل الشجرة ، وعضو الذكر التناسلى ، لأنهما يشتركان في نفس الطابع المادى أعنى البروز ، فان هذا الشخص يقوم بالتفكير الاسنادى • ونجد هذا النمط من التفكير سائدا بوجه خاص في الاحلام وهو الذي يفسر رمزية الاحلام • فامتطاء صهوة جواد أو حرث حقل قد تقوم مقام العلاقة الجنسية او ترمز لها ، ذلك لان حركات متشابهة تحدث في الركوب وفي الحرث وفي الجماع • والتفكير الاسنادى شائع في اليقظة أيضا ، وهو يسبب قدرا كبيرا من الخلط في تفكير الشخص ، اذ يمنعه من القيام بالتمييزات الصحيحة • والتغرّض العنصري يرجع في أغلب الاحيان الى التفكير الاسنادى • اذ لما كان الملونون سود البشرة ، ولما كان السواد مرتبطا بالشر والقذارة ، فأنهم يعتبرون أشرارا قذرين • وبالمثل ، الاشخاص حمر الشعر ، ننظر اليهم على أن لهم مزاج الجنيات ، وذلك لان الاحمر لون ينسب للجِّنيات •

وحين تقف عمليات « الأنا » و « الأنا الأعلى » في وجه التدفق الموجّه للطاقة الغريزية ، تحاول هذه الطاقة أن تنسرب من ثنايا المقاومات وتنصرف في الخيال او الفعل • وحين ينجح انسرابها تنهار العمليات العقلية التى يقوم بها « الأنا » ، ويرتكب الشخص أخطاء في الكلام والكتابة والحديث والادراك والتذكر • وقد يصيبه حادث لأنه وقع فريسة الارتباك والخلط وفقد اتصاله بالواقع • فقدرته على حل المشكلات وعلى كشف الحقيقة تتضاءل بتدخل الرغبات المندفعة • وكل منا يعلم الى أي حد يصعب أن يركز الانسان ذهنه على عمله حين يكون جائعا أو متهيجا جنسيا أو غاضبا • وحين لا ينجح « الهو » في ايجاد منافذ مباشرة للطاقة

الغريزية : يستحوذ « الأنا » أو « الأنا الأعلى » على الطاقة ، ويستخدمها في تزويد عملياته •

(ب) في الأنا : وليس « للأنا » طاقة خاصة به • ومع ذلك فليس في الوسع القول بوجود « الأنا » الا اذا انسربت الطاقة من « الهو » الى العمليات الكامنة التى تؤلف « الأنا » • وبتزويد هذه العمليات الجديدة بالطاقة ــ هذه العمليات من قبيل التمييز ، الذاكرة ، الحكم ، البرهنة ، وقد ظلت الى ذلك الحين نزعات فطرية كامنة في الشخصية ــ يبدأ «الأنا» باعتباره جهازا قائما بذاته ، نموّه الطويل المعقد •

وتقوم نقطة البدء في تنشيط امكانيات « الأنا » الكامنة في ميكانيزم معروف بميكانيزم التقمص • ولكى نفهم طبيعة هذا الميكانيزم يلزم لنا أن نعود الى بعض النقاط التى عرضنا لها من قبل • فقد ذكرنا أن « الهو » لا يقوم بأي تمييز بين الصورة المتخيّلة ، وبين الواقع الموضوعى • فحين يزود « الهو » صورة موضوع بشحنة ، أعنى حين تستخدم طاقة في عملية صياغة تمثّل عقلى لموضوع ، يكون الامر كما لو زوّد الموضوع نفسه بالشحنة • ذلك لأن « الهو » يرى الموضوع كصورة والموضوع كواقع خارجى سواء ، وليس لكل منهما كيان منفصل عن كيان الآخر •

وفشل « الهو » في التخلص من التوتر يقتضي الالتجاء الى خط جديد للنمو ، هذا الخط يضع الأساس الذي يقوم عليه « الأنا » • فبدلا من النظر الى الصورة والى الموضوع على أنهما شيء واحد ، يقوم انفصال بينهما • ويحدث نتيجة لهذه التفرقة أن يغدو العالم الباطنى الذاتى الخالص « للهو » منقسما الى عالم باطنى ذاتى (الذهن) والى عالم خارجى موضوعي (البيئة) • واذا كان للشخص أن يتكيف تكيفا سليما ، فما عليه

الا أن ينهض بالمهمة الملقاة على عاتقه ، أعنى اقامة الانسجام بين هذين العالمين أحدهما والآخر .

ولنأخذ مثلا على ذلك ، عندما يكون للشخص الجائع صورة من صور الذاكرة عن الطعام ، فعليه أن يكشف في البيئة عن موضوع واقعى يتفق مع صورة الذاكرة هذه . فاذا كانت صورة الذاكرة صورة دقيقة كان الموضوع الذي يعثر عليه هو الطعام . واذا لم تكن صورة الذاكرة ممثلا صادقا للطعام ، فينبغي مراجعتها حتى تصبح كذلك ، والا استبدّ الجوع بصاحبه وأفضى به الى الموت . لقد كان المعتقد في زمن مـا أن الارض مسطحة ، ولكن أعيد النظر في هذا التصور حين أظهر « كولومبوس » وغيره من المستكشفين أن الارض كروية وليست مسطحة . ان كل تقدم في المعرفة يتلخص في العمل على جعل تمثّلات الفرد العقلية عن العالم صورا أشدّ دقة للعالم على ما هو عليه بالفعل .

وتنجز العملية الثانية مهمة العمل على جعل مضمونات الذهن نسخا أمينة دقيقة لمضمونات العالم الخارجي . وحين تتفق فكرة موضوع مع الموضوع ذاته يقال ان الفكرة تقمصت الموضوع . وتقمص الافكار للواقع يجب أن يكون تقمصا مطابقا وصحيحا حتى يمكن أن تمضي خطة العمل بالشخص الى هدفه .

وينجم من ميكانيزم التقمص هذا ، أن الطاقة التي زود بها « الهو » الصور دون أي اعتبار أو أي تصور للواقع ، تتحول الى تمثلات عقلية دقيقة للعالم الواقعى . عند هذه النقطة يحل التفكير المنطقى محل اشباع الرغبة . هذا التحول للطاقة من « الهو » الى عمليات المعرفة علامة على خطوة للمبادأة في نمو « الأنا » .

ومن المهم أن نضع في أذهاننا أن هذا التكيف الجديد في الشخصية متوقف على الفصل بين الذات « الذهن » وبين الموضوع « المادة » • ويترتب على ذلك ألا يكون هنالك امكان لتقمص ما • « فهوية » الصورة والموضوع (أي أن تكون الصورة والموضوع شيئا واحدا) في الهو يمكن اعتبارها نوعا من التقمص البدائي • ومن الأفضل على أية حال استخدام كلمة هوية لهذه الحالة والاحتفاظ بكلمة تقمص لتلك الحالات التي يكون فيها اقرار واضح بالفصل بين شيئين كانا متقمصين أحدهما للآخر ، أعنى الاحداث العقلية والواقع الخارجي •

والفصل بين الذهن والعالم المادى للواقع ، يحدث نتيجة للتعلم والاحباط • وكما ذكرنا من قبل ، لا يستطيع « الهو » أن يشبع الحاجات الحيوية للحياة بالفعل المنعكس أو بالاشباع الوهمى للرغبة وحدها • ويترتب على ذلك أن الشخص ينبغي أن يتعلم الفرق بين الصور وبين الواقع لكى يستمر في البقاء • ولا شك ان هنالك استعدادا فطريا للتمييز بين الحالات العقلية المتوهمة باطنيا وبين الواقع الخارجي ؛ بيد أنه ينبغي تنمية هذا الاستعداد بالخبرة والتدريب • فالطفل يتعلم منذ سن مبكرة جدا أن يفرق بين ما هو خارجى في العالم ، وبين ما هو داخلى في الذهن • زد على ذلك أنه يتعلم من خلال الخبرة والتربية ، أن يجعل ما هو قائم داخل ذهنه متفقا مع ما يوجد بالفعل خارجه • أو بعبارة أخرى ، يتعود الطفل أن ينظر الى الاثنين على أنهما شيء واحد •

وثمة مثال على الفارق بين «الهوية» و «التقمص»؛ ويمكن لهذا المثال أن يجعل معنى هذين الاصطلاحين أشد وضوحا وجلاء • فحين يحلم شقى بأنه مطارد من أسد ، فعادة ما يشعر كأنما أسد حقيقي يطارده • وفي خلال الحلم لا تتميز الصور من الموضوعات الواقعية التى تقوم بتمثيلها •

فالصور والموضوعات هنا ذات هوية واحدة أي أنها جميعـا سواء • ويترتب على ذلك أن صاحب الحلم ينفعل بنفس الانفعال الذي ينفعل به لو كانت أحداث الحلم جارية بالفعل • وبالمثل ، لا يميز الشخص المريض بالهلوسة بين الحلم وبين الحقيقة • ومن جهة أخرى اذا كان الشخص في اليقظة يشاهد التليفزيون أو يقرأ كتابا فانه لا يظن أن الصور أو الكلمات هي الموضوعات القائمة نفسها • فهو يدرك أنها لا تعدو أن تكون تمثلات للواقع فحسب • فهو قد يجمع في هوية واحدة الاحداث الجارية في برامج التليفزيون أو في الكتاب ، والواقع • ولكنه يندر أن يضل فيظن أنهـا الواقع ذاته •

وحين تتقمص التمثلات الذاتية موضوعات العالم الخارجي ، فانها تستقبل الشحنات التي كان « الهو » يزوّد بها الموضوعات ذاتها • وتسمى هذه الشحنات الجديدة شحنات « الأنا » لتمييزها من الموضوعات التي يختارها « الهو » اختيارا غريزيا •

وعلى ذلك تصبح الطاقة مهيّأة بواسطة التقمص لنمو التفكـير الواقعي (العملية الثانية) الذي يحـل محل اشباع الرغبة المصحـوب بالهلوسة (العملية الاولى) • هذا التوزيع الجديد للطاقة من « الهو » الى « الأنا » هو حدث دينامي رئيسي في نمو الشخصية •

ولما كانت الوظائف العقلية « للأنا » تصيب نجاحا مرموقا في اشباع الغرائز ، فان الطاقة المخزونة في « الهو » تتدفق شيئا فشيئا الى « الأنا » • وكلما اشتدّ ساعد « الأنا » حل الوَهَنُ « بالهو » • وأيا ما كان ، فما أن يفشل « الأنا » في مهمته في اشباع حاجات « الهو » حتى تتحول شحنات « الأنا » الى شحنات خاصة بموضوعات الغرائز ، ويستعيد « اشباع الرغبة » سلطانة من جديد • هذا ما يحدث أثناء النوم • ولما كان « الأنا »

لا يستطيع ان يؤدى مهامه أداء فعالا أثناء النوم ، فان العمليــة الاولى تنهض بالعمل ، وتولد صورا مهلوسة • وحتى أثناء اليقظة ، قد تنشط العملية الاولى حين لا يفضي « الأنا » الى نتائج مباشرة ، وهذا ما يعرف باسم التفكير المغرض •

فالشخص الذي تستبد به الرغبة في أن يكون شيء ما حقيقيا ، قد يدفع به هذا الى أن يخدع نفسه فيظن أن هذا الشيء حقيقي بالفعــل • ونحن جميعا نعلم الى أي حد يسهل علينا أن ندع ميولنا ورغباتنا تقود تفكيرنا • وحتى العالم الموضوعي ينبغي له أن يحتاط بحيث لا يدع ما يؤثره نظريا ، يؤثر في ملاحظاته واستدلالاته • ولهذا فهو حريص على أن يضبط تجاربه وملاحظاته ضبطا ملائما ، ويكررها مرة بعد أخرى حتى يستوثق من ان ما رآه أول مرة كان صحيحا بالفعل • ان التفكير المتأثر بالرغبة يدأب على نصب الشراك لنا •

وفي الأحوال السوية يكاد « الأنا » أن يستأثر بالمخزون من الطاقة النفسية • وحين يجذب « لأنا » طاقة كافية وينتزعها من « الهو » ، يمكن أن تستخدم هذه الطاقة لاغراض أخرى غير اشباع الغرائز • وتستخــدم الطاقة في تنمية العمليات السيكولوجية ، من ادراك ، وانتباه ، وتعلم ، وتذكر ، وحكم ، وتمييز ، واستدلال وتخيل • ويتم لهذه العمليات جميعا قدر عظيم من النضج والفاعلية كلما كان « للأنا » رقابة على الطاقــة • ويتخذ العالم معانى جديدة بالنسبة للشخص كلما زادت دراسته لــه ؛ وباتساع معرفته يصبح في وضع أفضل يمكنه من أن يربط العالم بأغراضه هو • وتحول الطاقة من العمليات غير المتعقلة « للهو » الى العمليــات المتعقلة « للأنا » يؤدى الى تزايد مستمر في التحكم في الطبيعة ، لا في نمو الفرد فقط ، بل وفي التطور النوعى والحضارى للانسان أيضا •

وتستخدم بعض طاقة « الأنا » في منع المنبهات « الاثارات » خلال الجهاز الحركى وتأجيلها . والغرض من هذا التأجيل اتاحة الفرصة «للأنا»، لكى يضع خطة واقعية للفعل قبل تنفيذه . وحين تستخدم الطاقة لكى تسد الطريق في وجه تيار الطاقة المتجه الى التصريف النهائي لها ، فان هذه القوى المانعة تسمى الشحنات المضادة . والشحنة المضادة هى تجميع للطاقة المضادة لشحنة نفسية . وتوجه الشحنات المضادة التي تملكها « الأنا » ضد شحنات « الهو » لأن هذا الأخير يلح من أجل تخلص فورى من التوتر . ومنطقة الحدود بين « الأنا » و « الهو » ، يمكن تشبيهها بمنطقة الحدود بين بلدين ، أحدهما يحاول غزو الآخر . فالبلد المهدد بالغزو يشيد الحصون (الشحنات المضادة للأنا) التي يستطيع بها أن يصد الغزاة (شحنات الهو) . وحين تعجز الشحنات المضادة ، تطغى الشحنات الموضوعية « للهو » ، وتولد سلوكا مندفعا . وهذا ما يحدث حين يفقد شخص عادى اتزانه .

ويمكن أن تستخدم طاقة « الأنا » أيضا لتكوين شحنات انفعالية موضوعية جديدة . وهذه الموضوعات لا تشبع اشباعا مباشرا الحاجات الأساسية للكائن العضوى ، وان كانت مرتبطة بحلقات تربط بينها وبين موضوعات تؤدي هذا الاشباع . فمثلا قد تتفرع غريزة الجوع الى اتجاهات عديدة ، وتركز حولها كثيرا من وجوه النشاط التى لا تكون جوهرية لاشباع الجوع : فجمع وصفات الطعام غير المألوفة وكتب الطهى والاوانى الصينية والقطع الفضية النادرة ، واعداد مطبخ كهربائي ؛ واكتشاف المطاعم التى تقدم لروادها ألوانا غريبة من الطعام ، والقراءة والتحدث عن الاطعمة وكثير من ألوانها وما يتصل بها ؛ كل هذا وكثير غيره من الاهتمامات المرتبطة بالطعام تشغل نشاط كثير من الناس مع أنه ليس بين هذه الاهتمامات ما يشبع الجوع أو يخفف من حدته .

والسبب في كون « الأنا » له طاقة كافية يخصصها لاغراض غير غريزية هو أن عمله الفعّال يتيح من الطاقة ما يزيد على القدر اللازم لضرورات الحياة الحيوية • وكلما كان اقتصاد « الأنا » في تحقيقه للحاجات البدنية أعظم ، كان له طاقة آكبر يخص بها وجوه النشاط في وقت الفراغ من العمل • وأما الطريقة التي تنشأ بها اهتمامات « الأنا » ، فسنناقشها في الفصل التالى •

وأخيرا ، تستخدم طاقة « الأنا » في التأليف بين أجهزة الشخصية الثلاثة والتنسيق بينها • والغرض من هذا التأليف هو توليد تناغم باطنى وتفاعل متزن هادىء مع البيئة • وحين ينجز « الأنا » مهمته التأليفية بحكمة ، تتحد « الهو » و « الأنا » و « الأنا الأعلى » في كل متناسق خير تناسق • وسنفيض في شرح الوظيفة التأليفية « للأنا » في الفصول التالية •

ولو قورنت طاقة « الانا » بما في طاقة « الهو » من تنقل وحركة ، لكانت أقل حركة وانتقالا وأشد ارتباطا واستقرارا • ونقصد باستقرار الطاقة أنها تستخدم في العمليات العقلية ولا تستنفد في الأفعال الاندفاعية أو اشباع الرغبة • و « الأنا » يربط الطاقة بتوجيهها الى عمليات سيكولوجية ، وبرصدها في شحنات مضادة ، وبتشكيل اهتمامات « الأنا » ، وباستخدامها في عملية التأليف • وبقدر ما ينمو « الأنا » بقدر ما يزيد استخدامه للطاقة في هذه الوظائف •

جـ ـ في الأنا الأعلى :

ان الخوف من العقاب والرغبة في رضا الوالدين ، تجعل الطفل يتقمص التعاليم الاخلاقية لوالديه • وينجم عن هذا التقمص تكوين « الأنا الأعلى » • والتقمصات التى ينهض عليها « الأنا الأعلى » تختلف

عن التقمصات الواقعية للأنا في كونها مثالية قوية السلطان • فالوالدان مزوّدان بسلطات عظيمة لعقاب الطفل ومجازاته • ويترتب على ذلك أن « الأنا الأعلى » مزود أيضا بقوة الثواب والعقاب • فالثواب يتــولاه « الأنا المثالى » والعقاب يوقعه « الضمير » •

وتحريمات الضمير هى موانع أو شحنات مضادة تحول دون تصريف الطاقة الغريزية سواء بطريقة مباشرة في السلوك الاندفاعى واشباع الرغبة ، أو بطريقة غير مباشرة بواسطة ميكانيزمات « الأنا » • يعنى هــذا أن الضمير يواجه « الأنا » « بالهو » ، ويحاول أن يعلق عمل مبــدأ اللذة والمبدأ الواقعى • فالشخص الذي لديه ضمير قوى يكون على الدوام على حذر من الدوافع اللاأخلاقية • وهو ينفق قدرا كبيرا من طاقته للدفاع ضد « الهو » ، بحيث لا يتبقى لديه طاقة كافية لانجاز عمل مفيد مرضٍ • ويغدو نتيجة لهذا مشلول النشاط ، ويحيا حياة لا جدوى منها •

وتختلف شحنات الضمير المضادة عن شحنات الأنــا • وتفى قوى المقاومة عند « الأنا » بالغرض في تأخير الفعل النهائي ، حتى يمكن « للأنا » أن يضع خطة مرضية • وتحاول تحريمات الضمير ان تمحو مــن جهة أخرى كل تفكير في الفعل أيّا كان • فيقول الضمير للغرائز : « لا » بينما يقول الأنا لها : « انتظرى » •

ويسعى « الأنا المثالى » من أجل الكمال • ويستخدم طاقته في تزويد المثل العليا بالشحنات ، وهذه المثل العليا هى التي تمثل في الباطن القيم الأخلاقية للوالدين • وهذه المثل العليا تمثل الاختيــارات الموضوعيــة الكاملة • فالشخص الذي لديه ذخيرة من طاقته مرتبطة « بالأنا المثالى » ، هو شخص مثالى مرتفع التفكير • واختياره للموضوعات والاهتمامات

تحدّده قيمها الاخلاقية أكثر مما تحدده قيمها الواقعية . وهو أشد ارتباطا بالتمييز بين الخير والشر منه بالتمييز بين الحق والباطل . فالفضيلة لمثل هذا الشخص أهمّ من الحقيقة .

واذ يتفحص « الأنا » اختيارات الموضوع الاخلاقية التى يقوم بها « الأنا المثالى » ، فانه يستشعر مشاعر الكبرياء . والكبرياء هــو الجزاء الذي يضفيه « الأنا المثالى » على « الأنا » لما أداه من خير . والكبرياء هنا مثيل للشعور الذي يشعر به الطفل حين يثنى عليه والداه . ومن جهة أخرى ، حين يتقمص « الأنا » أو يختار موضوعا يعده « الأنا الأعلى » غير جدير بذلك ، فان « الأنا الأعلى » يعاقب « الأنا » اذ يجعله يشعر بالخجل والذنب . ويشبه هذا أيضا شبها وثيقا الحالة التي تحدث حين تعاقب الام أو الاب الطفل لشقاوته .

والكبرياء هو شكل من أشكال النرجسية الثانوية . و « الأنا » يحب ذاته لأنه يفعل ما هو فاضل ، والفضيلة هى جزاؤه ونعم الجزاء . ويمكن القول كذلك ان الاثم هو عقابه .

وعلى ذلك فنحن نرى أن الطاقة التي تخرج من « الهو » تتجه الى « الأنا » و « الأنا الأعلى » بواسطة ميكانيزم التقمص . ويمكن بعد ذلك أن تستخدم الطاقة بواسطة « الأنا » و « الأنا الأعلى » لتحقيق هدف « الهو » أو القضاء عليه ويعنى هذا البحث عن اللذة (التحرر من التوتر) أو تجنب الالم (تزايد التوتر) . وقد رأينا كيف أن « الأنا » يتحالف مع الهو من أجل اشباع الغرائز . وقد يلوح من جهة أخرى ، أن « الأنــا الأعلى » ، من حيث كونه عدوا للغرائز اللاأخلاقية الباحثة عن اللذة ، قد يواجه « الهو » ويعارضه ، بيد أن الأمر لا يكون دائما على هذا النحو .

ذلك لأن من الممكن أن يوجه « الهو » « الأنا الأعلى » للعمل من أجـل اشباع الغرائز • ومعنى هذا أن من الممكن أن يعمـل « الأنا الأعلى » كمندوب « للهو » في اتصاله بكل من العالم الخارجى من ناحية و « الأنا » من ناحية أخرى • مثل ذلك أن « الأنا الأعلى » لشخص أخلاقي يمكن أن يغدو شديد الاعتداء على الأنا الخاص به • وحينئذ يشعر « الأنا » بمهانته واثمه • والشخص الذي يشعر هذا الشعور قد يؤذى نفسه ايذاءا بدنيا أو ينتحر • وأفعال الاعتداء الذاتى ترضي الدوافع العدوانية « للهو » •

و « الأنا الأعلى » للشخص المرتفع التفكير يمكن أن يحصل أيضا على ارضاء « الهو » وذلك بمهاجمة الناس الذين يعتبرون لا أخلاقيين • ومن هنا كانت قسوة التعذيب من حيث هو مظهر للاستنكار الاخلاقـي أمرا لا نجهله ، وقد استخدم على نطاق واسع • خذ على سبيل المثال ، وحشية محاكم التفتيش ، وحرق الساحرات ، والقتل بالجملة الذي اقترفه النازيون • وقد كان الحماس الاخلاقي المفرط هو في ظاهر الامر الحافز لمثل هذه الهجمات السادية ، ومع ذلك فهذه الظواهر تمثل تعبيرا عـن القوى البدائية « للهو » • وفي مثل هذه الحالات ، يقال ان « الهو » قد أفسد « الأنا الأعلى » •

و « للهو » و « الأنا الأعلى » صفة أخرى مشتركة بينهما • فكلاهما يعمل بطريقة غير متعقلة ، ويشوّه الواقع ويموّهه • ويمكننا القول ، بالأحرى ، ان « الهو » و « الأنا الأعلى » يشوّهـان التفكير الواقعى « للأنا » • « فالأنا الأعلى » يجبر « الأنا » على أن يرى الاشياء على ما ينبغى أن تكون عليه لا على ما هى عليه بالفعل ؛ و « الهو » يجبر «الأنا» على أن يرى العالم كما يرغب « الهو » أن يكون • وفي أي من الحالين تفسد القوى غير المتعقلة ، العملية الثانية ، والاختيار الواقعى ، ومبـدأ الواقع ، وتشوشها •

وفي ختام هذا الفصل ، عن الطاقة النفسية في الشخصية وتهيئتها ، يجب أن يركز في الذهن أن ليس هناك الا قدر مهيئاً من الطاقة ولا مزيد عليه . ويعنى هذا أن ما يجنيه « الأنا » من الطاقة يفقــده « الهو » أو « الأنا الأعلى » أو كلاهما معا . فتزويد جهاز من أجهزة الشخصية بالطاقة يعنى سلب الطاقة من الأجهزة الأخرى . والشخص الذي لديه « أنا » قوى، سيكون لديه « هو » و « أنا أعلى » ضعيفان .

وتتألف ديناميــات الشخصية من التغييرات في توزيع الطاقــة في الشخصية كلها . ويتحدد سلوك الشخص بدينامياته . فاذا خضعت كمية الطاقة لحكم «الأنا الأعلى» أصبح السلوك سلوكا اخلاقيا واذا خضعت لحكم « الأنا » كان السلوك واقعيا . واذا كانت بين يدى « الهو » ، وهو منبع كل طاقة نفسية ، جاءت أفعالها جميعا اندفاعية . فان ما يكونه الشخص وما يفعله ، هو لا محالة تعبير عن الطريقة التي توزع بها الطاقة .

١٠ ـ الشحنات الانفعالية والشحنات المضادة :

حدّد « فرويد » في بعض ما كتب طابع التحليل النفسي بأنــه : « تصور دينامى يرد الحياة النفسية الى ما يجرى من شد وجذب عــلى التبادل بين قوى حافزة وقوى كابحة » . فالقوى الحافزة هى الشحنات والقوى الكابحة هى الشحنات المضادة .

وكما سبق أن رأينا ، لا يملك « الهو » الا شحنات انفعالية فقط ، بينما يملك « الأنا » و « الأنا الأعلى » الى جانب ذلك شحنات انفعالية مضادة . والواقع أن « الأنا » و « الأنا الأعلى » يوجدان لأن من اللازم كبح جماح أفعال « الهو » المتسمة بالتهور . وأيا ما كان ، فبينما تعمل

العمليات التي تؤلف الأنا والأنا الأعلى بمثابة « فرامـل » « للهو » ، « فللأنا » و « الأنا الأعلى » أيضا قواهما القائدة .

وثمة طريقة أخرى للنظر الى فكرة الشحنات المضادة ، هى بأن ننظر اليها على أنها احباط باطنى . فقوة المقاومة تعطل تخفيف التوتر . ويجب تمييز هذا النمط من التعطيل من نمط آخر يسمى الاحباط الخارجي . ففى الاحباط الخارجى لا يمكن الحصول على موضوع الهدف لاسباب ليس للشخص سيطرة عليها . فالشخص قد يريد الطعام ، ولكن اذا لم يكن هنالك طعام في بيئته ، أو اذا منع من الحصول عليه يظل جوعه دون اشباع . فالاحباط الخارجي هو حالة من المنع أو الحرمان بينما الاحباط الباطنى هو حالة من الكبت الداخلى . فحين يريد شخص أن يفعل شيئا ، وثمة عقبة خارجية تقف في طريقه ، فان هذه العقبة هى الاحباط الخارجى . وحين يريد شخص أن يفعل شيئا ، ولكن « الأنا » أو « الأنا الأعلى » يمنعه من ذلك ، فان هذا احباط باطنى .

ويلاحظ « فرويد » أن الاحباط (الشحنة المضادة) لا يظهر له وجود الا اذا مهّد له الاحباط الخارجى . وذلـك أن على الشخص أن يتمرّس بالمنع والحرمان قبل أن ينمّي سيطرته الباطنية . وفي حالة « الأنا الأعلى » مثلا ، لا ينمى الطفل تعوده للنظام الذاتى ، الا اذا هيّئت لـه الفرصة لتقمص الموانع الاخلاقية عند أبوية . فعلى الطفل أن يتعلم ما هو سيء بأن يعاقب قبل أن يتمكن من اقامة سيطرة باطنية على سلوكه الذاتى .

وفكرة القوى الحافزة والقوى الكابحة تمكننا من أن نفهم لمَ نفكر ونعمل على نحو ما نفعل . وبوجه عام ، اذا كانت القوى الحافزة أقوى من القوى الكابحة فان فعلا ما يحدث أو فكرة ما تغدو شعورية . وا..

قهرت الشحنات المضادة الشحنات الانفعالية ، يمنع الفعل أو « تكبت » الفكرة • ومع ذلك ، فحتى اذا لم تكن هنالك شحنة مضادة ، فان العملية العقلية قد تكون من الضعف والوهن ، بحيث لا يحدث فعل أو تخطر فكرة •

ولنأخذ على سبيل المثال ، حالة شخص يحاول ان يتذكر شيئا • فقد لا يستطيع أن يتذكر لأن الأثر القائم في الذاكرة مزوّد بقدر غير كاف من الطاقة • وقد يكون لدى الأثر قدر ضعيف من الطاقة لان التجربة لم تترك انطباعا قويا عند الشخص • أو أن طاقة الأثر قد استنزفها تكوين آثار ذاكرة جديدة • فان تعلم شيء جديد يعنى ـ عادة ـ أن شيئا قديما لم يتعلم أو نسي • والسبب في ذلك أن لدى الشخص طاقة نفسية عظيمة • وعند القيام بوجوه نشاط جديدة ، تستعار الطاقة من الشحنات الانفعالية الموضوعية التى تم استقرارها من قبل • ويترتب على ذلك ضعف شحنات الذاكرة القديمة حين تنضاف الطاقة الى شحنات الذاكرة الجديدة •

وآثار الذاكرة التي لا يكون لديها الا قدر ضئيل من الطاقة تبدأ به ، و التي تخلت عن طاقتها لآثار أخرى ، يقال عنها انها آثار منسية • وهى قد تعود من جديد الى الذاكرة بتكرار التجربة • وعلى ذلك فحين ينسى أحدنا رقم تليفون ففي وسعه أن يزود ذاكرته من جديد بالاثر الخاص به بالنظر الى الرقم في سجل الارقام التليفونية • ويطلق على هـذا انعاش الذاكرة •

ومن جهة أخرى ، قد لا يستطيع الانسان أن يتذكر شيئا ما ، لأن شحنة أثر الذاكرة تواجهها مقاومة أو شحنة مضادة • لذلك يقال عن بعض الذكريات انها مكبوتة أكثر من كونها منسية •

ويمكن استرجاع الذكرى المكبوتة ، اما باضعاف قوة الشحنة المضادة أو بمضاعفة قوة الشحنة الانفعالية . وليس من الميسور أن نفعل هـذا أو ذاك . وعادة ما نجد أنه كلما كانت محاولة الشخص اقتحـام الكبت أشدّ ، كانت المقاومة أعنف . وثمة وسائل فنية خاصة مثـل التنويم أو التداعى الحر تستخدم لاضعاف المقاومات . وتميل المقاومات الى ان تكون أضعف أثناء النوم ، بحيث أننا نستطيع ان نسترجع في حلم شيئا مكبوتا أثناء اليقظة .

وتتساءل الآن لم تكبت الذكريات ؟ هنالك سببان رئيسيان لذلك : اما أن تكون الذكرى ذاتها ذكرى مؤلمة ، أو أن تكون الذكرى مرتبطة بشيء مؤلم . مثلا ، قد ينسى شخص اسم شخص آخر يعرفه ، وقد حدث بينهما احتكاك مؤلم . أو أنه قد ينسى الاسم لارتباطه بشيء مؤلم . وفي أية حالة من الحالتين تؤدى الشحنات المضادة الغرض بحماية الشخص من الضيق والقلق . وكل هذا يعنى أنه من الأيسر أن ننسى موعدا مع طبيب الأسنان ، من أن ننسى لقاء من أجل الرقص .

وكل انسان على بيّنة من واقعة الشدّ والجذب بين القوى الحافزة والقوى الكابحة في الشخصية ، بتكرار ذلك في الحياة اليومية . وثمـة مثال نموذجى على هذا هو الحاجة الماسة الى التبول ، فان الانسان يضبط ذلك لعدم مناسبة الزمان والمكان . وثمة مثل آخر مألوف هو الدافع الى « شنكلة » شخص فان هذا الدافع تكبته المشاعر الاجتماعية . وقد تكون هنالك كلمة على طرف اللسان ، لا تتذكرها لأن ثمة كبتا يحول دون ذلك، وكلما كانت محاولتنا لتذكرها أشد ، كان هذا التذكر أصعب . فاذا وجهنا الانتباه الى مسائل أخرى ، فقد تضعف المقاومة وتنطلق الذكرى المكبوتة انطلاقا تلقائيا الى الشعور . وثمة أمثلة أخرى عديدة يمكننا ان نسوقها .

على التعارض بين القوى • فأحيانا يكون الشخص على بيّنة من التعارض بينما لا يعدو ما يمارسه في أحيان أخرى مجرد شعور بالتوتر ، دون أن يكون على بيّنة بطبيعة القوى المتعارضة •

ويطلق على مواجهة شحنة انفعالية بشحنة مضادة ، الصراع النفسانى الباطنى •

والصراع الباطنى يربض في أعماق الشخصية • ومثل هذه الصراعات ينبغى تمييزها من الصراعات التى تقوم بين الشخص وبيئته • ومع أن هنالك عددا لا يحصى من الصراعات الباطنية ، بقدر ما يكون هنالك من شحنات انفعالية وشحنات مضادة متعارضة ، فمن الممكن ادراجها جميعا تحت طائفة من طائفتين : صراعات بين « الهو » و « الأنا » ، وصراعات بين « الأنا » و « الأنا الأعلى » • وليس ثمة صراعات بين « الهو » و « الأنا الأعلى » ذلك لان أى تعارض بين « الهو » و « الأنا الأعلى » يجر معه دائما الانا • ذلك لان « الهو » و « الأنا الأعلى » يلتحمان في صراع لان كلا منهما يحاول أن يستخدم « الأنا » لأغراضه • زد على ذلك أن صراعا بين « الهو » و « الأنا » قد يتعقد اذا انضم « الأنا الأعلى » بقواه الى صف الهو ضد الأنا أو الى صف « الأنا » ضد « الهو » • والأنا هو العنصر المشترك في جميع الصراعات بما في ذلك الصراعات التي تتضمن مواجهة العالم الخارجى • ولما كانت نتيجة الصراع تعد أمرا حاسما في نمو الشخصية فاننا سنتناول هذا الموضوع الهام مرة أخرى في الفصل القادم •

ومن الوجهة العملية ، كل عملية من عمليات الشخصية ، يعدها وينظمها ما يجرى بين شحنة انفعالية وشحنة مضادة • وأحيانا يكون

التوازن بينهما رقيقا دقيقا بحيث أن أضأل نقص في قوة الشحنة الانفعالية عن قوة الشحنة المضادة يعنى الفرق بين فعل شيء وعدم فعله • وأخف زيادة في الشحنة الانفعالية أو أخف نقص في الشحنة المضادة ، حين يكون اصبع الانسان على زناد البندقية ؛ قد يؤدي الى انطلاق الرصاصة ومقتل شخص ، ومحاكمة القاتل ، واعدامه • ان التوازن الدقيق الرقيق في القوة، هذا التوازن الذي يحدث في كثير من الأحيان بين القوى القائدة والقوى المانعة في الشخصية ، يجعل من أصعب الأمور التنبؤ تنبؤا دقيقا بما سيفعله انسان في موقف ما • وكما أن الشرارة قد تؤدي الى حريق مهول ، فكذلك قد يؤدي ارتفاع في مستوى الشحنة الانفعالية لا يكاد يدرك ، الى سلسلة بعيدة المدى من الأحداث في حياة الفرد والمجتمع • هذا العجز عن التنبؤ بسلوك الانسان يحول بين علم النفس وبين أن يكون علما غاية في الدقة • ولقد كان « فرويد » يرمى الى هذا حين كتب ما يلى :

« بقدر ما تتتبع النمو من آخر مرحلة من مراحله الى بداياته الاولى ، يلوح لنا الارتباط مستمرا ، ونشعر أننا قد جنينا فراسة مرضية أتمْ ارضاء ومستوعبة أكمل استيعاب • ولكننا اذا سلكنا الطريق العكسي ، فبدأنا من المقدمات التى نستخلصها بالتحليل ، وتوخينا أن تتتبع هذه المقدمات ونصعد منها الى النتيجة النهائية ، فاننا ما نلبث أن يتكون لدينا انطباع بأن ثمة تعاقبا لا مفر منه لأحداث ، لا يمكن على أية حال ، تحديده • ونلاحظ ، في الحال أنه قد تكون هنالك نتيجة أخرى ، وأننا قادرون على فهم هذه النتيجة وتفسيرها • فالتركيب هنا ليس كافيا كفاية التحليل ؛ وبعبارة أخرى اننا لا نستطيع اذا بدأنا من معرفة بالمقدمات أن تتنبأ بطبيعة النتيجة » •

« ومن السهل جدا أن نفسر هذا الأمر المحيّر • وحتى اذا افترضنا

أننا نعرف تمام المعرفة جميع العوامل العلية التي تقرر نتيجة ما ، فاننا ما برحنا نعرفها معرفة كيفية فقط ولا نعرفها في قوتها النسبية . فبعض هذه العوامل قد تبلغ من الضعف حدا يمكن العوامل الاخرى من القضاء عليها، ومن ثم لا تؤثر في النتيجة النهائية . ولكننا لا نعرف ألبتة معرفة حاضرة لنا ، أيّ العوامل المحددة أضعف وأيها أقوى . وانمـا نقول فحسب في النهاية ان تلك العوامل التي نجحت لا بد أنها كانت العوامل الاقوى . وعلى ذلك فمن الميسور دائما بالتحليل أن تتعرف على العلة بيقين ، بينما التنبؤ بها بالتركيب مستحيل » [1] .

ان ما يذكره « فرويد » هنا ، مرجعه ما هنالك من دقائق في الشدة النسبية في القوى المثيرة والقوى الكابتة ، وما قد تولده التغيرات الصغيرة في هذه الشدّة من آثار واسعة ، فعلم النفس لا يمكن أن يكون علما تنبؤيا . ومع ذلك فهو يمكن أن يكون علما مفسّرا ، بمعنى أنه يستطيع من النتيجة المعطاة أن ينظر الى ما وراءها ويستخلص الأسباب التى أفضت اليها .

وسنعود في الفصل التالى الى مسألة الدور الذي تلعبه الشحنـة الانفعالية أو الشحنة المضادة في نمو الشخصية . وسنفحص أيضا مشكلة كيف أن شحنة انفعالية يمكنها أن تتجنب المقاومة بأن تجد منفذا آخر لها .

١١ ـ الشعور واللاشعور :

كان « اللاشعور » هو الفكرة المركزية في نظرية « فرويـد » في

(1) Sigmund Freud, : (The Psychogenesis of a Case of Homosexuality in a Woman) — in collected Papers (London, 1933) 226 — 237,

السنوات الاولى من عمر «التحليل النفسي» • وفي مصطلحات « فرويد » الاخيرة ، التى بدأت منذ حوالى سنة ١٩٢٠ ، هبط « اللاشعور » من منزلته ، من حيث كونه أوسع وأهم منطقة في النفس ، الى منزلة أدنى ، فغدا صفة للظواهر العقلية • وقد غدا « الهو » شاملا لكثير مما كان ينسب من قبل للاشعور • وقد استبدل التنظيم ذو الثلاثة أقسام « الهو » و « الأنا » و « الأنا الأعلى » ، بالتمييز الأساسي بين الشعور واللاشعور•

ومع أننا لا نهدف هنا الى كتابة تاريخ لنمو أفكار « فرويد » وتطورها ، في علاقته بتاريخ علم النفس ، ففي وسعنا ان نشير الى أن تزايد اهمية اللاشعور في التحليل النفسي ، قد وازاها تناقص في منزلة العقل الشعوري في علم النفس • فبينما كان علم النفس في القرن التاسع عشر ، مهتما بتحليل العقل الشعوري ، كان التحليل النفسي منشغلا بمكتشفات العقل اللاشعوري • لقد كان « فرويد » يدرك أن الشعور لا يعدو أن يكون سلخة رقيقة من العقل كله ، فمثله مثل جبل الجليد ، أكبر جزء فيه يوجد تحت سطح الوعى •

وقد اعترض علماء النفس على « فرويد » بقولهم ان فكرة العقل اللاشعوري هى تناقض في التعبير ، ذلك لان العقل ، بالتعريف ، شعورى • ولم تصل المساجلة بين الفريقين الى تيجة نهائية ، ذلك لان كلا من علم النفس وعلم التحليل النفسي قد غير في أهدافه ومقاصده أثناء القرن العشرين • فقد أصبح علم النفس هو علم السلوك ، وعلم التحليل النفسي علم الشخصية • وهنالك في وقتنا الحاضر دلالات عديدة على أن العلمين معا ، يسيرانُ في الطريق الى تأليف علم واحد •

ويلوح لنا الآن أن اكتشاف تلك القوى المحددة في الشخصية ، التى لا يعرفها الملاحظ معرفة مباشرة ، هو ما كان « فرويد » يحاول انجازه

خلال ثلاثين عاما بين ۱۸۹۰ ــ ۱۹۲۰ ، حين كان للعقل اللاشعوري الغلبة والسلطان في مذهبه السيكولوجى . فكما أن الطبيعة والكيمياء تجعل معروفا ما هو مجهول عن طبيعة المادة ، بالاختبار والتجربة ، فكذلك مهمة علم النفس في نظر « فرويد » هى البحث عن تلك العوامل القائمة في الشخصية والتى نجهلها ، ويلوح أن هذا هو معنى عبارة « فرويد » : « ان عملنا العلمى في علم النفس يتألف من ترجمة العمليات اللاشعورية الى عمليات شعورية ، فنملأ بذلك الفجوات القائمة في الادراكات الشعورية »[1] .

ان « فرويد » يقر فقط بحقيقة معروفة لنا خير معرفة ، وهى أن هدف جميع العلوم هو استبدال المعرفة بالجهل . مثل ذلك أن الانسان لا يكون على دراية مباشرة بعملية الهضم كما تحدث ، ولكن علم الفسيولوجيا يمكن ان يخبره بما يجرى أثناء الهضم . هذه المعرفة لا تمكنه من أن يكون على بيّنة من عمليات الهضم كما تحدث ، ومع ذلك فهو يعرف ما يجرى . وبالمثل ان الانسان لا يكون على بيّنة بالعمليات العقلية اللاشعورية ، ولكن علم النفس يمكن أن يشرح له ما يجرى تحت سطح الوعى .

خذ مثلا : شخص حدثت له حادثة ، فهو عادة لا يكون على بينة بأن الحادثة قد تمثل رغبة في جرح ذاته . ومع ذلك فهذا ما أظهره في دقة عدد من الدراسات . والشخص الذي تكون لديه رغبة نهمة لطعام أو شراب ، لا يكون له عادة وعى بالحقيقة القائلة بأن هذا النهم قد ينشأ من رغبة خابت في الحب . ومع ذلك ، فكثيرا ما يكون الامر كذلك ؛ وحتى اذا علم الشخص أن هنالك علاقة بين ميل عارض وبين مشاعر الاثم ، أو بين الادمان

(1) S. Freud : Some Elementary Lessons in Psycho - Analysis. in C. P. London. 1950, 392.

على الكحول وبين الفشل في الحب ، فهو على الارجح لا يكون على وعى مباشر بهذه العلاقة كما هى قائمة فيه •

ويعتقد « فرويد » أنه اذا كان على علم النفس أن يبرر ذاته كعلم ، فان عليه أن يكتشف علل السلوك المجهولة • وهذا هو السبب في اهتمامه اهتماما بالغا بالعلل والدوافع اللاشعورية في السنوات الاولى للتحليل النفسي • « ففرويد » يرى أن ما هو لا شعورى فهو مجهول •

وقد غدا الشعور واللاشعور في نظرية التحليل النفسي بعد سنة ١٩٢٠ صفتين للظاهرة النفسية • فكون مضمون العقل شعوريا أو لا شعوريا متوقف على حجم الطاقة المزوّد بها ، وشدة قوة المقاومة • فالشخص يستشعر الالم أو اللذة حين تتخطى كمية الالم أو اللذة درجة معينة من قيمة الشحنة الانفعالية يطلق عليها عتبة القيمة •

وبالمثل ، يدرك الانسان موضوعا في العالم حين تكون للعملية الادراكية طاقة تتخطى عتبة القيمة • وحتى حين تتخطى الشحنة عتبة القيمة فان الاحساس أو الادراك لا يملك صفة الشعور بسبب الآثار الكابتة للشحنة المضادة ، التى تمنعه من أن يغدو شعوريا : فمثلا ، هنالك حالات عن أشخاص عاجزين عن الرؤية ، بالرغم من أنه ليس هنالك عيب في ميكانيزمهم البصرى ، فهم عميان لانهم لا يريدون أن يبصروا • وهذا يعنى أن هنالك قوة كابتة « شحنة مضادة » تشل حركة الشحنات البصرية• والسبب في أنهم لا يريدون أن يبصروا هو أن الرؤية مؤلمة لهم غاية الايلام• فهم يخافون خوفا شديدا أن يبصروا ، مثلهم في ذلك مثل الشخص الذي يغمض عينيه في السينما لكى يتجنب مشاهدة منظر مروّع •

والادراكات والأحاسيس هى خبرات مباشرة لشيء يحدث للشخص

في الوقت الحاضر . والذكريات والافكار هى تمثلات عقليـة لخبرات ماضية . ولكى تغدو الأفكار والذكريات شعورية يلزم لها أن تكون مرتبطة باللغة . والانسان لا يستطيع أن يفكر او يتذكر الا اذا كان ما يفكر فيه أو يتذكره مرتبطا بكلمات رآها أو سمعها . ويترتب على ذلك أن الانسان لا يستطيع أن يتذكر تذكرا شعوريا الخبرات الطفولية التى حدثت له قبل أن تنمو لغته ومع هذا فبالرغم من أن الانسان لا يستطيع تذكر الخبرات المبكرة فانها قد يكون لها أهمية حاسمة في نمو الشخصية .

ويميز « فرويد » بين كيفيتين للاشعور ، ما قبل الشعور واللاشعور الخالص . ففكرة ما قبل الشعور أو ذكرى ما قبل الشعور يمكن أن تغدو شعورية بغاية اليسر ، لان المقاومـة ضعيفة . أما الفكـرة أو الذكرى اللاشعورية فانها تقتضي وقتا طويلا لكى تغدو شعورية، لأن القوة المعارضة قوية . وهنالك في الانسان جميع درجا تاللاشعور . ففى طرف ، الذاكرة التى لا يمكن البتة أن تغدو شعورية ، وفي طرف آخر الذاكرة التى تكون على طرف اللسان .

وما دام من المطلوب أن يكون هنالك تركيز واسع نسبيا للطاقة في العملية العقلية لكى تغدو شعورية ، فانه يلزم أن تستمد الطاقة من عمليات عقلية أخرى . هذا يعنى أننا لا نكون على شعور الا بشيء واحد في زمن واحد . ومع ذلك فان الانتقال السريع للطاقة ، بين الفكـرة والذكرى والادراك أو الاحساس ، يزودنا بدراية شعورية على نطاق واسع وفي أقصر فترة من الزمن . ففى وسع الانسان أن يستعرض في ذاكرته حشدا مـن الاشياء في سرعة بفضل خفة الحركة التى يمكن أن يعاد بها توزيع الطاقة النفسية . ان الجهاز الادراكى أشبه بميكانيزم الرادار ، الذي يستطيع بغاية السرعة أن يلتقط كثيرا من صور العالم . وحين يكتشف الجهاز الادراكى

موضوعا مطلوبا او يستشعر خطرا ممكنا في العالم الخارجى ، فانه يركز اتباهه على الموضوع أو الخطر • وتستدعى الافكار والذكريات من ما قبل الشعور ، لكى تعين الشخص على التكيف مع الموقف الذي يواجهه • وحين ينجلي الخطر أو ترضى الحاجة، يوجه العقل اتباهه الى أشياء أخرى•

١٢ ــ الغرائز :

أشرنا من قبل [١] الى أن الغريزة هى قدر من الطاقة النفسية يتجه الى عمليات سيكولوجية ، وأن للغريزة منبعا وهدفا وموضوعا ودافعا • واذا تساءلنا : كم عدد الغرائز المختلفة ؟ فاننا نجيب بأنها تبلغ من الكثرة مبلغ الحاجات البدنية ، ما دامت الغريزة هى الممثل النفسي لحاجة بدنية • ويقول فرويد ان البحث البيولوجى هو الذي يحدد مسألة عدد الغرائز ويفصل فيها •

أقر « فرويد » في النتائج النهائية التى وصل اليها بوجود مجموعتين من الغرائز ، تلك التى تخدم الحياة ، وتلك التى تخدم الموت • فالهدف النهائى لغرائز الموت هو العودة الى اطراد المادة غير العضوية • وقد تكهّن « فرويد » بأن غرائز الموت انبثت في المادة الحية في فترة من فترات التطور الأرضي ، حين كانت القوى الكونية تعمل من أجل تحويل المادة غير العضوية الى أشكال حية • ومن الارجح أن هذه الاشياء الحية الاولى عاشت فترة قصيرة جدا فحسب ، ثم عادت الى حالتها غير العضوية الاولى• والحياة تتألف بصفة جوهرية من حالة مضطربة ناجمة عن تنبيه خارجى • وحين يهدأ الاضطرا بـتنطفىء شرارة الحياة • وكنتيجة لهذه الشروط التى تكتنف خلق الحياة ، فان التراجع الى اللاعضوى يغدو هدفا للعضوى •

---

(١) الفصل الثالث ــ فقرة ٨ •

وباتصال تطور العالم واستمراره ، خلقت أشكال جديدة من الطاقة اضطرابات كانت أطول عمرا بحيث اتسعت رقعة الحياة • ومـا لبثت الاشياء الحية أن اكتسبت قوة توليد ذاتها من جديد • عند هذه النقطة في التطور أصبح خلق الحياة مستقلا عن التنبيه الخارجي • ومع أن غريزة التوالد تضمن استمرار الحياة ، فان حضور غريزة الموت يعنى أن ليس ثمة شيء حى يعيش الى الابد • ان مصيره النهائي هو دائما أبدا العودة الى اللاعضوى • لقد اعتقد « فرويد » أن الحياة هى طريق ملتف نحو الموت •

وغرائز الموت تنجز عملها دون أن يفطن الى ذلك أحد • ونحن لا نعرف عنها الا شيئا ضئيلا اللهم الا أنها تنجز لا محالة مهمتها • ومع ذلك فان مشتقات غرائز الموت ، ومن أهمها ، الهدم والاعتداء ، أبعد عن أن تكون خفية • وسيجد القارىء دراسة ومناقشة لمشتقات الغريزة في الفصل الرابع (عن نمو الشخصية) • ويكفى الآن أن نقول هنا ، ان المشتق من غريزة هو قوة محركة لها نفس المنبع ونفس الهدف اللذين للغريزة المشتق منها ، وبعبارة أخرى ان المشتق من غريزة هو بديل للشحنة الانفعاليـة الموضوعية •

وغرائز الحياة معروفة أفضل لأن آثارها أكثر شيوعا ، وهى المثلات العقلية لجميع الحاجات البدنية التي يكون اشباعها ضروريـا لاستمرار الحياة وانتشارها • والغرائز الجنسية هى أكثر غرائز الحياة حظا مـن الدراسة العميقة الوطيدة ، وهى تشغل أهمية عظيمة في نظرية التحليـل النفسي الخاصة بالشخصية • وللغرائز الجنسية منابعها في مناطق بدنيـة متعددة يطلق عليها المناطق الشبقية : والفم ، والشرج ، والاعضاء التناسلية هى المناطق الشبقية الرئيسية • وقد اعتقد « فرويد » أن كل منطقة شبقية

لا بد أن تكون جزءا من البدن تشتد حساسيته بفضل الهرمونات الكامنة في الغدد التناسلية • والغرائز الجنسية ينشأ كل منها مستقل عن الآخر في حياة الفرد ، ولكن عند البلوغ (النضج الجنسي) تجتمع هـذه الغرائز عادة في كل متآلف من اجل خدمة التوالد • وتتفاعل الغرائز الجنسية أيضا مع غيرها من غرائز الحياة • فالفم هو الذي يحمل الطعام ، وهو في نفس الوقت جزء من البدن حين ينبه تنبيها مناسبا يثير لذة حسية • والشرج هو العضو الذي تخرج منه الفضلات ، ولكنه كذلك يزود باللذة حين ينبه بطريقة ما • وسنفيض في الحديث عن الغرائز الجنسية ومشتقاتهـا في الفصل التالى •

والطاقة التي تستخدمها غرائز الحياة تسمى « اللبيدو » Libido ولكن « فرويد » لم يطلق اسما خاصا ما على الطاقة التى تستخدمها غرائز الموت • ففي كتاباته المبكرة ، استخدم كلمة « لبيدو » للدلالـة على الطاقة الجنسية ولكنه حين راجع نظرية الدوافع عرّف « اللبيدو » بأنها الطاقة الموجودة في جميع غرائز الحياة •

وغرائز الحياة والموت ، ومشتقاتها يمكن ان يذوب بعضها في البعض الآخر ، ويمكن أن يشل بعضها عمل البعض الآخر • وثمة مثل على ذوبان غريزة في غريزة أخرى ، هو النوم ، ما دام النوم هو في نفس الآن هبوط في التوتر (عودة جزئية في طريق اللاعضوى) ، وفترة تتجدد فيها عمليات الحياة اذ تتزوّد بالانتعاش والحيوية • وكذلك الاكل يمثل ذوبان غريزة حياة في غريزة هدم وهى مشتقة من غريزة الموت ، ما دمنا بالطعام نحافظ على الحياة ، ولكن الطعام في نفس الوقت يتحطم اذ يقضم ويمضغ ويبلع • والحب وهو مشتق من الغرائز الجنسية ، كثيرا ما يشل الكراهية ، وهى مشتقة من غرائز الموت • او أنهما قد يتعادلان ويتناوبان ، كما يحدث حين ينقلب الحب كراهية او تنقلب الكراهية حبا •

وتقيم الغرائز في « الهو » ، ولكنها تبدأ التعبير عن ذاتها حين تقود عمليات « الأنا » و « الأنا الأعلى » • و « الأنا » هو العميل الرئيسي لغرائز الحياة • فالأنا يخدم غرائز الحياة بطريقتين هامتين : فهو يظهر للوجود أصلا لكى يحصل على اشباع للحاجات البدنية الاساسية ، وهو يفعل هذا حين يتعلم القيام بعمليات تواؤم واقعية مع البيئة • ويخدم « الأنا » كذلك غرائز الحياة بتحويل غرائز الموت الى أشكال تخدم غايات الحياة بدلا من خدمتها لغايات الموت • مثال ذلك ، أن الرغبة الاولية للموت في «الهو» تتحول في « الأنا » الى اعتداء على الاعداء في العالم الخارجي • وحين يقدم الشخص على الفعل العدائي يحمى ذاته من أن يؤذيه أعداؤه أو يجهزون عليه • والاعتداء يعينه كذلك على ان يتغلب على الحواجز التي تقف في طريق اشباعه لحاجاته الاساسية •

وأيا ما كان ، حين يكون الانسان معتديا ، يصادف اعتداء بالمثل من السلطة أو من الاعداء • ولكى يتجنب العقوبة يتعلم ان يتقمص شخصية المعتدين ، معنى هذا أن يغدو معتديا ضد الدوافع ذاتها التى تجعله يقف من الآخرين موقفا عدائيا • وبعبارة أخرى ينمّي الانسان « الأنا الأعلى » الذي يؤدى نفس الدور في كبح جماح دوافعه كما تقوم بهذا العمل سلطة خارجية •

و « الأنا الأعلى » في دوره من حيث كونه سلطة باطنية يتخذ من ثم عملا عدوانيا ضد « الأنا » حين يثبت أن « الأنا » يقف موقف تمرّد او عصيان من ممثل السلطة الخارجية • ويمكن تلخيص تسلسل حلقات الاحداث فيما يلى : ١ ـ الطفل عدوانى مع أبيه • ٢ ـ ورد فعل الأب هو معاقبة الطفل • ٣ ـ يتقمص الطفل شخصية الأب المعاقب • ٤ ـ تنتقل سلطة الأب الى باطن الطفل وتغدو « الأنا الأعلى » ٥ ـ يعاقب « الأنا

اعلى» « الانا » حين يعصى قاعدة أخلاقية من قواعده • ويمكننا أن نضع الامر في صورة متطرفة ، فنجد أن « الأنا الأعلى » يسعى للقضاء على الأنا • هذا ما يحدث مثلا حين يحس الانسان بالخجل الشديد من نفسه بحيث يقدم على الانتحار •

وما دام « الأنا » هو عميل الحياة ، « فالأنا الأعلى » اذ يبذل جهده من أجل تحطيم « الأنا » ، يستهدف نفس الهدف الذي تستهدفه الرغبة الاصلية للموت القائمة في الهو • ذلك هو السبب الذي من أجله يقال عن « الأناالاعلى » انه عميل غرائز الموت •

١٣ ـ القلق :

القلق من أهم أركان نظرية التحليل النفسي • وهو يؤدى دورا هاما في نمو الشخصية مثلما يؤديه في عمل ديناميباتها • وهو فوق ذلك له مغزى مركزي في نظرية « فرويد » في العصابيات والذهانيات ، وفي علاج هذه الحالات المرضية (الباثولوجية) ، وسنقتصر في دراستنا الحالية على النظر الى ذلك الجانب من القلق الذي يؤدي دوره في عمل الشخصية السوية •

القلق تجربة انفعالية مؤلمة تتولد عن الاثارات في الاعضاء الباطنية للبدن • وتنجم هذه الاثارات عن تنبيه خارجي او باطنى ، ويهيمن عليها الجهاز العصبي • مثل ذلك عندما يواجه شخص حالة خطيرة ، ينبض قلبه بسرعة أعظم ، ويتنفس تنفسا لاهثا ، ويجف فمه ، ويتصبب العرق في راحتيه •

ويختلف القلق عن سائر الحالات المؤلمة مثل التوتر والالم والحزن ، بكيفية نوعية من كيفيات الشعور • ونحن نجهل بالضبط ما يحدد هذه

الكيفية . وقد ظن « فرويد » أنها لا بد أن تكون قسمة مميزة من قسمات الاثارات الباطنية ذاتها . والقلق في أية حادثة هو حالةشعورية يمكن أن يميزها الشخص تمييزا ذاتيا ، من تجارب الالم واليأس والحزن والتوترات الناجمة عن الجوع والعطش والجنس ، وسائر الحاجات البدنية . وقد يبدو أن ليس ثمة قلق لا شعوري ، كما أن ليس ثمة ألم لاشعوري . فقد لا يكون الشخص على دراية بسبب قلقه ، ولكنه لا يمكن أن يغفل عن الشعور بالقلق . فالقلق الذي لا يمارس بالفعل لا وجود له .

والقلق مرادف لانفعال الخوف . وقد آثر « فرويد » كلمة قلق على كلمة خوف لاننا قد جرينا على النظر الى الخوف بمعنى اننا نخاف من شيء ما ماثل في العالم الخارجي . وقد تبين « فرويد » أن الانسان قد يخاف من مخاطر باطنية ، كما يخاف من مخاطر خارجية . وعلى ذلك فقد فرّق « فرويد » بين ثلاثة أنماط من القلق : القلق الواقعى أو الموضوعى ، والقلق العصابى ، والقلق الاخلاقي . هذه الانماط الثلاثة من القلق لا يختلف الواحد منها عن الآخر في الكيف ؛ فكلها لها الصفة الوحيدة في كونها غير لاذة ، وانما تختلف فقط تبعا لمصادرها . فمصدر الخطر في القلق الواقعي جاثم في العالم الخارجى . فالانسان يخاف من ثعبان سام ، من شخص مسلح ببندقية أو من سيارة اختل توازنها . وفي القلق العصابى يكمن التهديد في موضوع غريزي قائم في « الهو » . فالانسان يخاف من أن تجرفه رغبة ملحة لا ضابط لها لارتكاب فعل أو التفكير في شيء يؤدى الى ايذائه . وفي القلق الاخلاقى نجد ان مصدر التهديد قائم في ضمير « الأنا الأعلى » . فالانسان يخاف من أن يعاقبه الضمير على فعل شيء يتعارض مع معايير « الأنا المثالى » ، أو التفكير في هذا الفعل . ولنوجز ما بسطناه نقول ان انماط القلق الثلاثة التى يمارسها « الأنا » ، هى الخوف من العالم الخارجي أو الخوف من « الهو » أو الخوف من « الأنا الأعلى » .

والتمييز بين هذه الانماط الثلاثة من القلق لا يعنى أن الانسان الذي يمارس القلق يكون على بينة من مصدره الفعلى • فقد يظن أنه يخاف من شيء ما في العالم الخارجى ، مع أن خوفه ينشأ في الواقع من دافع خطر أو من تهديد الانا المثالى • مثل ذلك الشخص الذي يخاف من حمل سكين حاد بين يديه، قد يظن أن خوفه مرجعه أن السكاكين الحادة خطرة بطبيعتها، مع أن ما يخفيه في الواقع هو أنه قد يغدو معتديا فيصيب شخصا حين يكون السكين في يده • او قد يظن شخص أنه يخاف من وجوده في مكان عال لان الامكنة العالية خطرة بطبيعتها ، مع أنه في حقيقة الامر ، يخاف لئن ينتهز ضميره فرصة وجوده في مكان عال ليعاقبه على ذنوبه بأن يتسبب في سقوطه من شاهق • وقد يكون مزاجا من القلق العصابي والموضوعي أو من القلق العصابى والاخلاقى ، وقد يكون مزاجا من هذه الانماط الثلاثة معا •

والوظيفة الوحيدة للقلق انه يعمل كاشارة خطر « للانا » ، بحيث أنه حين تظهر الاشارة في الشعور ، يمكن « للانا » أن يتخذ الاجراءات التي يواجه بها الخطر • ومع أن القلق مؤلم ، وقد يرغب الانسان في القضاء عليه ، فانه يخدم وظيفة ضرورية جدا بأن يحذر الشخص من مثول أخطار باطنية وخارجية • وحين يحذر الشخص يمكنه ان يفعل شيئا يتجنب به الخطر او يقضي عليه • ومن جهة أخرى اذا لم يكن في الوسع القضاء على الخطر ، فقد يتضاعف القلق وينتهى باكتساح الشخص • وحين يحدث هذا، يقال ان الشخص قد وقع فريسة انهيار عصبى •

(ا) القلق الواقعي :

القلق الواقعي هو تجربة انفعالية مؤلمة ، تنجم عن ادراك لخطر قائم في العالم الخارجى • والخطر هو أية ملابسة من ملابسات البيئة تهدد

بايذاء الشخص • وادراك الخطر واثارة القلق قد يكون امرأ فطرياً ، بمعنى ان الانسان يرث ميلا للخوف من بعض الموضوعات في الملابسات القائمة في البيئة ، وقد يكتسب هذا الادراك في حياة الانسان • مثل ذلك الخوف من الظلام قد يكون فطريا لان الاجيال الماضية من الناس كانت تحاط دائما بالاخطار في الليل قبل ان تكون لديها وسائل الاضاءة ، وقد يكتسب لان الانسان أميل أن تتيقظ مخاوفه بالليل منه بالنهار • أو قد يمكن ان تتضافر الوراثة والخبرة معا على توليد الخوف من الظلام • فالوراثة قد تجعل الشخص قابلا للخوف ، بينما قد تحول الخبرة هذه القابلية الى واقعية •

ففي حادثة من الاحداث ، يكون من الايسر تعلم المخاوف في فترة الطفولة والصبى ، حين يكون كيان الانسان العضوي لم ينضج بعد ، ولا حيلة له ، بحيث يمنعه ذلك من أن يكون قادرا على مواجهة الاخطار الخارجية • والكائن العضوي الطفل كثيرا ما يكتسحه الخوف ، ذلك لان « الانا » لم ينم الى النقطة التي يستطيع عندها أن يكبح جماح ذلك القدر الضخم من المنبهات والمثيرات • وتسمى الخبرات التي تزيد قوة القلق عند الشخص بخبرات الصدمة الانفعالية ، لانها تعود به الى حالة الطفولة التي لا حول لها ولا قوة • والطراز النموذجي لجميع خبرات الصدمات الانفعالية ، هو صدمة الولادة • والطفل الحديث الولادة ينهال عليه تنبيه مفرط من العالم ، لم يتهيأ له بعد ذلك الجنين الذي كانت تكفل له الحماية داخل بطن امه •

ويواجه الطفل في خلال السنوات الاولى كثيرا من الملابسات الاخرى التي لا يستطيع أن يتصرف ازاءها • وهذه الخبرات الناجمة من الصدمات الانفعالية ترسي الاساس لنمو شبكة المخاوف كلها • وأية ملابسة فيما بعد ذلك تهدد بالعودة بالشخص الى حالة الطفولة التى لا حول لها فانها

تمس اشارة القلق • ان المخاوف كلها مرتبطة بالخبرات الاولى التي كان الطفل فيها عاجزا ، ومشتقة منها • ولذلك كان من المهم جدا أن نحمى الطفل الصغير من الخبرات الناجمة من الصدمات الانفعالية • وفي وسعنا — وينبغي لنا ان نتعلم على أية حا ل— أن نرد ردا فعالا حين يدق القلق ناقوس الخطر • فنحن نهرب من الخطر او نفعل شيئا لنمحوه • ونحن نكتسب أيضا القدرة على توقع الخطر ، وعلى اتخاذ خطوات للقضاء عليه قبل أن يغدو الخطر خطرا مؤديا الى صدمة انفعالية • هذه القدرة تتمثل في أن تتمكن من التعرف على أضأل شعور بالوجل باعتباره اشارة لشيء قد يغدو أشد خطرا ما لم نوقفه عند حده • والانسان ينظم على الدوام سلوكه على أساس مشاعر بدائية دالة على توقع الخطر • فحين يقود انسان سيارة ، مثلا ، فهو يمارس تعاقبا من توقعات بسيطة للخطر ، تنبهه لكى يكون على حذر من امكان الخطر •

وحين لا يستطيع انسان ان يقوم بشيء للذود ضد الخطر ، فان القلق يرتفع الى النقطة التى يتهاوى فيها الشخص او يغمى عليه • ومن المعروف ان الخوف قد يقتل صاحبه • وسنرى في الفصل القادم أن « للانا » وسائل أخرى لمواجهة القلق •

(ب) القلق العصابى :

يثير القلق العصابي ادراك بالخطر آت من الغرائز • وهو خوف مما قد يحدث اذا فشلت شحنات « الانا » المضادة في منع الشحنات الغريزية الموضوعية من التصريف في فعل اندفاعى • ويمكن أن يظهر القلق العصابى في صور ثلاث : فهنالك نمط منطلق من الخوف يكون مهيأ للارتبـــاط بملابسة من ملابسات البيئة متوائمة معه • وهذا النوع من القلق يطبع بطابعه الشخص العصبى الذي يتوقع دائما حدوث شيء مفزع • ونحن

تقول عن شخص كهذا انه يخاف ظله • وأفضل لنا ان نقول انه يخاف من « الهو » الخاص به • وان ما يخافه في الواقع هو أن « الهو » الـذي يضغط باطراد على « الانا » ، سيملك ناصيته وينتهي به الى حالة يفقد فيها كل حول وكل طول •

وثمة صورة ملحوظة من صور القلق العصابي ، وهي الخوف العميق الذي ليس له تفسير عقلي • ويسمى هذا بالخوف المرضي • والطابـع المخصص للخوف المرضي هو أن شدة الخوف فيه لا تتناسب أي تناسب مع الخطر الماثل بالفعل في الموضوع الذي يخافه الشخص • فقد يخاف خوفا مميتا من الفراشات ، ومن الجرذان ، ومن الاماكن المرتفعة ، ومن التجمهر ، ومن الاماكن المفتوحة ، ومن الزراير ، والمطاط ، ومن عبور الطريق ومن التحدث امام الجماعة ، ومن الماء او الفقاعـات الصغيرة ، ونقتصر في هذا على بعض من كل من أنواع الخوف المرضي التي نعرفها • في كل حالة من هذه الحالات نلاحظ أن الخوف ليس له سبب معقول • ذلك لان المنبع الرئيسي للقلق نجده في « الهو » أكثر مما نجده في العالم الخارجي • وموضوع الخوف المرضي يمثل ميلا لاشباع غريزي ، او يرتبط بطريقة ما بموضوع اختيار غريزي • وهنالك وراء كل خوف عصابي رغبة بدائية « للهو » في الموضوع الذي يخاف منه الشخص • فالشخص يريد ما يخاف منه او يريد شيئا مرتبطا به ، أو يرمز اليه الموضوع الذي يخافه • مثل ذلك امرأة شابة كانت تخاف خوفا مميتا من لمس أي شيء مصنوع من المطاط • ولم تكن تعلم لم كان يتملكها هذا الخوف ، كانت تعلم فحسب ان هذا الخوف يتملكها الى الحد الذي يمكن ان تسعفها به ذاكرتها • وقد كشف التحليل عن الحقائق التالية : عند ما كانت فتاة صغيرة أحضر والدها الى المنزل بالونين أحدهما لها والآخر لأختها التي تصغرها • وفي لحظة من لحظات الاندفاع حطمت بالون أختها فعاقبها والدها على ذلك عقابا صارما •

وكان عليها فضلا عن ذلك ان تتنازل عن بالونها لأختها • وقد علم بمواصلة التحليل أنها كانت تغار غيرة شديدة من أختها التي تصغرها ، وقد بلغت بها الغيرة حدا كانت تتمنى معه لو ماتت أختها ، وأضحت الشيء الوحيد الذي يتركز عليه عطف والدها وعنايته • وتحطيم بالون اختها يعنى فعلا تدميريا موجها لاختها • والعقوبة التي أعقبت ذلك ، ومشاعر الذنب التى استشعرتها ، كل هذا قد ارتبط بالبالون المصنوع من المطاط • فكلما احتكت بالمطاط ، جعلها الخوف القديم الماثل في رغبتها في تحطيم شقيقتها، تفزع بعيدا عنه •

ويمكن ان يؤدي القلق الاخلاقي الى تضخم الخوف المرضي حين يحمل الموضوع المرغوب فيه المرهوب في نفس الوقت ، مثلا أعلى من مثل « الأنا الأعلى » • مثل ذلك أن امرأة قد تخاف خوفا ليس له تفسير عقلي من أن تغتصب ، لانها في الواقع تريد ان تتصل اتصالا جنسيا ، ولكن « الأنا الأعلى » عندها يثور ضد هذه الرغبة • فهى في الواقع لا تخاف من أن تغتصب ، وانما تخاف من ضميرها فتحتمى من الرغبة • وبعبارة أخرى ان جزءا من شخصيتها في حرب مع الجزء الآخر • « فالهو » يقول : « أنا أريد ذلك » • و « الانا الاعلى » يقول : « هذا امر رهيب » ، و « الانا » يقول : « أنا أخاف » • هذا هو تفسير الكثير من المخاوف العنيفة •

وتلاحظ الصورة الثالثة من صور القلق العصابى في أرجاع الفزع أو القريبة من الفزع • وتظهر هذه الارجاع فجأة دون أن يكون ثمة ما يبررها في الظاهر • فقد تقرأ عن شخص أطلق الرصاص على مجموعة كبيرة من الناس قد لا يعرفهم ولم يصبه احد منهم بمكروه ، وهو بالتالى لا يستطيع ان يفسر لم فعل ذلك • كل ما يعرفه هو أنه قد شعر بحالة من

الانهيار ومن التوتر الشديد بحيث كان عليه أن يفعل شيئا قبل أن ينفجر .
هذه الارجاع الفزعية هي امثلة على السلوك التصريفى ، الذي يهدف الى تخليص الشخص من قلق عصابى حاد الالم بأن يفعل ما يرغب فيه « الهو » بالرغم من موانع « الانا » و « الانا الاعلى » .

والسلوك الفزعى هو صورة متطرفة لرد الفعل الذي يحدث في صورة أقل عنفا . وهو يلاحظ حين يأتى الشخص شيئا لا يتفق مع طابع سلوكه المألوف . قد يظهر في القاء كلمة نابية فجأة ، أو أخذ شيء قليل القيمة من مستودع أو التعليق على شخص ما بملاحظة ماسة بكرامته . ففى مثل هذه الحالات يقال ان الشخص يصدر في أفعاله عن دوافعه . وحين يفعل الشخص ذلك يخفف من القلق العصابى بتخفيف الضغط الذي يباشره « الهو » على « الأنا » .

ولسنا بحاجة الى القول بأن السلوك الاندفاعى ينجم عن تزايد في القلق الواقعي حين يثير الفعل المندفع رد فعل تهديدي من البيئة كما يحدث عادة . فالطفل يعاقب مرارا لاندفاعه في تصرفه ، بحيث يتعلم التحكم في دوافعه . فاذا لم يتعلم التحكم كطفل ينمو على نحو يصبح معه شخصا مندفعا ، فيتخذ المجتمع نحوه اجراءات يتبع فيها الطرق القانونية . ومع ذلك فمن المعروف أن المواطنين الذين ينتهكون حرمة القانون يخرقون القانون تحت ضغط القلق العصابى . فقد أفلت الزمام من أيديهم ، واندفعت دوافعهم فبدت في سلوكهم . وبالرغم من أن الناس الذين يملكون زمام نفوسهم يأسفون لصدور الافعال الاندفاعية وحدوث الانفجارات الانفعالية ، فان ثمة راحة وتخفيفا يعقب كل انفجار .

والقلق العصابى مؤسس على القلق الواقعى ، بمعنى أن الانسان يربط بين حاجة غريزية وبين خطر خارجي قبل أن يتعلم الخوف من غرائزه.

وبقدر ما لا يتحقق تصريف غريزي في العقوبة ، فان الانسان ليس لديه ما يخشاه من الشحنات الغريزية الموضوعية • ومع ذلك فحين يوقع السلوك الاندفاعي الشخص في مأزق ، كما يحدث عادة ، فانه يتعلم الى أي حد تكون الغرائز خطرة • فالصفع والزجر ووجوه العقوبة الاخرى تبين للطفل أن الاشباع الغريزي الاندفاعي يؤدى الى حالة من الضيق • ويكتسب الطفل القلق العصابى حين يعاقب لكونه اندفاعيا •

وقد يكون القلق العصابى أشد وطأة على «الانا» من القلق الواقعي• فكلما طال بنا العمر ، فاننا ننمى طرائق التحكم في التهديدات الخارجية وتجنبها • وحتى ونحن أطفال ، في وسعنا دائما أن نهرب من الاشيـــاء والملابسات الخطرة • ولكن ما دام مصدر القلق العصابى قائما في نطاق شخصية الفرد ، فمن الاشق علينا أن نواجهه ومن المستحيل علينا أن نهرب منه • ان نمو الشخصية ــ كما سنرى في الفصل القادم ــ يحدده في أكبر قسط منه أنواع التكيف والميكانيزمات التي تتشكل في « الانا » لكى تواجه القلق العصابي والاخلاقى • ان القتال ضد المخاوف ، هو احـــد الارتباطات الحاسمة في النمو النفساني ، ولنتيجته أثر عميق في تحديد الطابع النهائي للشخص •

وقبل ان نختم هذا الفصل ، يجمل بالقارىء ان يلاحظ أن القلق العصابي ليس شيئا قاصرا فحسب على العصابيين وحدهم • فالسويون يمارسون أيضا القلق العصابى ، ولكنه لا يتحكم في حياتهم بالقدر الذي يتحكم به في حياة العصابيين • وأخيرا ، فالفرق بين الفرد العصابى والفرد السوى هو فرق في الدرجة فحسب ، وخـــط الحدود بين الاثنـــين خط تكتنفه الظلال •

(ج) القلق الأخلاقي :

والقلق الاخلاقي الذي يمارس في صورة احساسات بالذنب او الخجل في « الأنا » ، يثيره ادراك للخطر آت من الضمير • فالضمير من حيث هو العميل الباطنى للسلطة الابوية يهدد بعقاب الشخص لاتيان فعل أو التفكير في شيء من شأنه ان يفت في عضد أهداف الانا المثالى المتصفة بالمال ، تلك الاهداف التى ركزت في اعماق الشخصية بفضل الابوين • والخوف الاصلى الذي يستمد منه القلق الاخلاقي هو خوف موضوعى ، هو الخوف من عقوبة الوالدين • وكما هو الشأن في القلق العصابى ، تجد مصدر القلق الاخلاقي قائما في بناء الشخصية ، وكذلك لا يستطيع الشخص ان يفلت من احساسات الذنب بالهروب بعيدا عنها • فالصراع هنا صراع نفسي باطنى بحت ، اعنى انه صراع لاصق ببناء الشخصية ، وهو لا ينطوى على علاقة بين الشخص والعالم ، اللهم الا بالمعنى التاريخى ، اعنى ان القلق الاخلاقى هو ثمرة خوف موضوعى من الوالدين •

وللقلق الاخلاقى روابط وثيقة بالقلق العصابى ، طالما كان الاعداء الرئيسيون « للانا الاعلى » ، هم الاختيارات الموضوعية البدائية «للهو» • وتنجم هذه الروابط عما يفرضه الابوان من نظام يوجه على نطاق واسع ضد التعبير عن الدوافع الجنسية والعدوانية • وكنتيجة لذلك ،نرى ان الضمير ، وهو الصوت الباطنى للسلطة الابوية ، يتألف من موانع ضد الحسيات والعصيان •

وانها لاحدى سخريات الحياة ان الشخص الفاضل يمارس نسبة من الخجل أشد من تلك التى يمارسها الرجل غير الفاضل • والسبب في ذلك أن مجرد التفكير في اتيان شيء سيء يجعل الشخص الفاضل يستشعر الخجل • والشخص الذي له قدرة التحكم في نفسه يبذل قدرا كبيرا من

التفكير في نزعاته الغريزية طالما أنه لا يجد مخارج أخرى لحوافزه الغريزية. وليس لدى الرجل الاقل فضيلة « أنا أعلى » بنفس قوة « الانا الاعلى » عند الرجل الفاضل ، وعلى ذلك فهو أقل تعرضا للشعور بوخز الضمير حين يفكر في شيء يتعارض مع القانون الاخلاقي ، او يفعله . ان مشاعر الذنب هى جزء من الثمن الذي يدفعه الشخص المثالى مقابل تخليه عن الغرائز .

لقد قلنا ان القلق هو تحذير « للانا » بأنه في خطر . وفي القلق الموضوعي اذا لم يعبأ الشخص بالتحذير لوقع عليه شيء من الاذى . فهو يعانى الما بدنيا او يمارس حرمانا أو قنوطا . واذا تنبه للتحذير ، كان في وسعه أن يتجنب الاذى . وفي كل من القلق العصابى والقلق الاخلاقى لا يكمن الخطر في العالم الخارجى ولا يخاف الشخص من أذى بدنى او حرمان بدنى . فما الذي يخافه اذن ؟ هو يخاف الخوف ذاته . ويظهر هذا بوضوح في حالة مشاعر الذنب وهى تؤلم الشخص ايلاما مباشرا . وقد تغدو غير محتملة في الواقع ، بحيث قد يبادر الشخص المذنب بفعل شيء يستجدى به العقوبة من مصدر خارجى حتى يبدد ذنبه ويضمن راحة البال . وكم من أناس ارتكبوا جرائم لاحساسهم بالذنب ، وكان من الميسور القبض عليهم لانهم هم انفسهم كانوا يرغبون في أن يقبض عليهم وينزل بهم العقاب . وعلى نحو شبيه بذلك ، نجد أن الضغط المتزايد للقلق العصابى قد يفضي بالشخص الى أن يفقد عقله ، ويقدم على شيء غاية في الاندفاع . وتتائج الفعل الاندفاعى ، تؤخذ على أنها اقل الما من القلق ذاته . ان القلق، عصابيا كان أو أخلاقيا ، لا يعد اشارة « للانا » على الخطر الموشك فحسب، بل ويعد أيضا هو الخطر ذاته .

★★★

في هذا الفصل تناولنا الشخصية من حيث كونها جهازا للطاقة معقدا

ومتشابكا • والطاقة التي تمارس نشاطها في الشخصية وتمكنها من انجاز عملها تسمى الطاقة النفسية • فمن أي مصدر تأتى هذه الطاقة ؟ انها تأتى من الطاقة الحيوية للجسم • فالطاقة الحيوية تتحول الى طاقة نفسية ، أما كيف يتم هذا التحول فهذا ما نجهله •

و « الهو » هو مستودع الطاقة النفسية • وتستخدم طاقة « الهو » في اشباع غرائز الحياة والموت الجذرية • وتسحب الطاقة من المستودع بواسطة ميكانيزم التقمص وتستخدم لتنشيط « الانا » و «الانا الاعلى» •

وتستخدم الطاقة التي في متناول « الأنا » و « الهو » في غرضين عامين • فهى اما أن تعين على تصريف التوتر بأن تحوّل الى شحنات ، أو تمنع تصريف التوتر بأن تحول الى شحنات مضادة • والشحنات المضادة ترصد اولا لغرض تخفيف القلق وتجنب الالم • ويتحدد ما يفكر فيه الشخص وما يفعله بالقوة النسبية لهذه القوى المشتقة والمقاومة •

ونحن نجد في آخر مطاف التحليل أن ديناميات الشخصية تتألف من انتقال الطاقة النفسية انتقالا متبادلا بين أجهزة الشخصية الثلاثة •

الفصل الرابع

نمو الشخصية

من الحقائق الواضحة في الشخصية أنها مطردة التغـير والنمو . ويلاحظ هذا بوجه خاص اثناء فترات الطفولة الباكرة والطفولة والمراهقة، فيصبح « الأنا » من وجهة البنية اشد تغيرا ؛ ومن وجهة الدينامية تضمن تزايد الرقابة على المنابع الغريزية للطاقة .

ويحدث نضج في أنماط السلوك ، واثمار في الشحنات الانفعاليـة الموضوعية ، وذلك في شكل اهتمامات وارتباطات ، ونمو في العمليـات النفسانية ، للادراك والذاكرة والتفكير . وتغدو الشخصية بأكملها اكثر تكاملا ، وهذا يعنى ان تبادل الطاقة بـين الاجهزة الثلاثة وبين العالـم الخارجي أصبح ميسرا . وتميل الشحنات الانفعالية والشحنات المضادة الى الثبات كلما امتد العمر بالشخص ، بحيث تؤدي الشخصية وظيفتها على نحو أيسر واكثر تنظيما وتلاؤما من ذي قبل . ومن خلال التعلم تنمو عند الشخص قدرة اعظم في تناول وجوه القلق والاحباط .

هذه التغيرات وكثير غيرها مما يحدث في الشخص هي ثمرة شروط رئيسية : ١ ـ النضج ٢ ـ المنبهات المؤلمة الناجمة عن الموانع ووجوه

الحرمان الخارجى ٣ ــ المنبهات المؤلمة الناشئة من الصراعات الباطنيــة (شحنات انفعالية وشحنات مضادة) ٤ ــ العجز الشخصي ٥ ــ القلق •

ويتألف النضج من نتائج متعاقبة فطرية منضبطة في تغيرات النمو • والمشي مثل على عملية النضج • فليس لدى الطفل في البداية قدرة على الحركة والانتقال ، ثم يسير الطفل ، نتيجة لنمو عظامه وعضلاته وجهازه العصبى ، خلال سلسلة محددة من التقدم تبدأ برفــع الرأس ، وتنتهى بخطوه خطواته الاولى بنفسه •

ويمر نمو اللغة بمراحل من التقدم مماثلة لذلك ، تبدأ من تهتهة الطفل الى النطق بكلمات ذات معان • ويتأثر الادراك والذاكرة والتعلم والحكم والفكر بنضج الجهاز العصبي المركزي • وتتغير الغرائز ، وبخاصة الغريزة الجنسية تبعا لنضج الجهاز العصبى المختلط الذي يتألف من الجهاز العصبى المستقل والغدد المفرزة •

ويعم النضج الكائن كله • ولا يكاد يكون هنالك جانب من جوانب النمو لا يحمل اثرا من آثاره ؛ ومع ذلك فمن العسير ــ ان لم يكن من المستحيل ــ أن نفصل آثار النضج عن آثار التعلم • فالنضج والتعلــم يمضيان يدا في يد في نمو الشخصية •

والاحباط هو ما يمنع منبها مؤلما أو غير مريح من التصريف • وبعبارة أخرى ، الاحباط هو ما يقف في طريق مبدأ اللذة • فالشخص قد يواجهه الاحباط ، لان الهدف الموضوعى الجوهري لا يوجد في البيئة ، ويقال عن هذا حرمان ، أو أن الموضوع الهدف قد يكون ماثلا ، ولكن يؤخذ بعيدا عن الشخص الذي يريده فيقال عن هذا اغتصاب • والحرمان والاغتصاب يصنفان على أنهما من وجوه الاحباط الخارجى لانهما قائمان في البيئة •

وقد يعزى الاحباط أيضا الى شيء قائم في الشخص • قد يكون هنالك قوة معارضة أو شحنة مضادة تمنع الشخص من الحصول على الاشباع ، ويطلق على هذا صراع • أو قد يفتقر الشخص الى المهارة او الفهم او الذكاء او الخبرة ليصل الى توافق مرض • ويطلق على هـذا الضعف او القصور القائم في الشخص ، العجز الشخصي • وأخيرا ، قد يعزى الاحباط الى الخوف ، فقد يخاف الشخص من السعى وراء الاشياء التي يريدها • وقد يكون الخوف واقعيا ، عصابيا أو أخلاقيا أو شيئا ما يجمع بين هذا كله •

والطرائق التي يقابل بها الشخص هذه العقبات أو يحـاول التغلب عليها أو التوافق معها ، تشكل شخصيته • ذلكم هو موضوع هذا الفصل• ونحن نعود الآن الى النظر في بعض الطرائق الرئيسية التى يحاول بهـا الشخص القضاء على الاحباط والصراع والقلق • هذه الطرائـق هى التقمص ، والنقل ، والتسامى ، وميكانيزمات الدفاع ، وتحول الغرائز بالاستغراق والتراضي •

١٤ ــ التقمص :

فسرنا في الفصل السابق ، تكوين « الأنا » و « الأنـا الأعلى » بميكانيزم التقمص فقلنا ان « الانا » و « الانا الاعلى » يجذبان الطاقة من « الهو » ، وذلك بتشكيل تقمصات مثالية وأخلاقية من الاختيـــارات الموضوعية الغريزية « للهو » • ونود الآن أن نناقش مناقشة أعمق طبيعة التقمص ودوره في نمو الشخصية •

وسنعرف التقمص في هذا الفصل بأنه اتخاذ كيفيـات موضوع خارجى ، ــ وهى ، عادة ، كيفيات شخص آخر ــ لشخصية فرد مـا • والشخص الذي ينجح في تقمص شخص آخر يشبه هذا الشخص • ومن الاسباب التي تجعل الاطفال يشبهون آباءهم أنهم يحاكون خصائصهم •

والنزعة الى محاكاة الاخرين هى عامل هام من عوامل صياغة الشخصية •

ففي كنف اية ملابسات يتحقق التقمص ؟ هنالك على الاقل اربعة ملابسات هامة • الاولى ضئيلة الصلة بالاحباط والقلق • فهى تعتمد فقط على انتشار الشحنة النرجسية (أو محبة الذات) وامتدادها الى قسمات شخص آخر • فمثلا الصبى الذي يزهى بقسمات الذكورة عنده أقرب الى تقدير هذه القسمات عند غيره من الذكور ، لا لانه يرغب في أن تكون له ، بل لانها شبيهة بما عنده •

ونحن نميل دائما الى تقمص اولئك الذين لديهم الخصائص التى لدينا • ويطبق هذا على الممتلكات المادية انطباقه على السمات الشخصية • فالشخص الذي يمتلك عربة كاديلاك أميل الى تقمص اولئك الذين يمتلكون « كاديلاك » من أولئك الذين يمتلكون « فورد » ، هذا النمط من التقمص نطلق عليه التقمص النرجسي • والنرجسية هى اصطلاح « فرويد » الذي يطلقه على حب الذات • وقد أخذ هذا الاصطلاح من أسطورة « ناركيسوس » الذي وقع في غرام صورته حين رآها منعكسة على صفحة الماء ، ونحن نقول ان شخصا « نرجسي » حين ينفق وقتا طويلا في الاعجاب بذاته •

ولا ينبغي الخلط بين التقمص النرجسي وبين الاختيار الموضوعى • فحين يقوم الشخص باختيار موضوع فهو يفعل هذا لانه يريد هذا الموضوع • وفي ألتقمص النرجسي نجد أن الشخص لديه من قبل الموضوع الذي يريده ، وتتجه شحناته فقط لكى تجذب أشخاصا آخرين لديهم نفس الموضوع • فبعض الناس يتقمصون البعض الآخر لانهم يملكون خصائص مشتركة معينة ، ولكنهم يشتهون النساء لان هؤلاء وسيلة يمكن بها تخفيف توترات متعددة •

واذا كان عامل النرجسية قويا جدا ، يمكن للشخص ان يستمد الاشباع من اختياره موضوعا لحبه يشبهه هو • هذا سبب من الاسباب الذي من أجله يؤثر الشخص ان تكون علاقته الجنسية بذكر على أن تكون بأنثى ، أو الذي من أجله قد يتزوج الشخص امرأة مسترجلة ، أو قد تتزوج المرأة رجلا مخنثا • فالشخص هنا يحب صورته المنعكسة كما فعل « ناركيسوس » من قبل •

ومن الممكن جدا أن كل اختيارات الموضوع تقع تحت نفوذ درجة ما من النرجسية • فمثلا قد لا يقع شخصان عادة في الحب ما لم يشبه أحدهما الآخر على نحو ما • وقد نجد بوجه عام ، ان الناس من طبقة اجتماعية معينة ، ولهم اهتمامات وأذواق متماثلة ، يقعون في الحب ويتزوجون •

ويعد التقمص النرجسي مسئولا عن الروابط التى تربط بين أعضاء في جماعة واحدة • فأعضاء جماعة واحدة أصدقاء يتقمص كل منهم الآخر ، لانهم جميعا يشاركون على الاقل في خصيصة مشتركة : وهى العضوية في نفس التنظيم • وحيثما كان لشخصين أو اكثر شيء مشترك ، سمة بدنية أو عقلية ، اهتمام ، قيمة ، امتلاك ، عضوية في ناد واحد ، اشتراك في وطن واحد ، أو شيء من هذا القبيل فان كلا منهما يميل الى تقمص الآخر • وقد يتقمص شخص شخصا آخر لان كليهما يريد نفس الشيء • ومع ذلك يتقاتلان لامتلاك الشيء المرغوب • وقد يبدو غريبا القول أن هنالك رقة بين الاعداء او المتنافسين ، ولكن ثمة ما ينم عن وجود هذه الرقة بالفعل • فقد يغدو الاعداء ، أحيانا ، أصدقاء ، وقد تنقلب المنافسة أحيانا الى تعاون • فرجل الشرطة يتقمص اللص واللص يتقمص رجل الشرطة •

ونمط ثان من أنماط التقمص ينشأ من الاحباط والقلق • تأمل مثلا

ضفيرة فتاة تروم أن تحب • فهى ترى صديقاتها يقعن في الحب وتعجب لم كان لهن ما هى في حاجة اليه • وهى تعقد عزمها على محاكاة صديقاتها ، آملة بذلك ان تحقق الهدف الذي حققنه • هذا النمط من التقمص ، الذي يتقمص فيه شخص فاشل شخصا ناجحا لكى يغدو هو نفسه ناجحا ، يسمى التقمص الموجه الى هدف •

والتقمصات الموجهة الى هدف شائعة جدا • ولها أثر بالغ على نمو الشخصية • فالطفل يشتد شبهه بأبيه اكثر فأكثر كلما كان أبوه محققا لاهداف يرغب فيها الصبى أيضا • وتتقمص فتاة أمها لنفس السبب وبنفس النتيجة • ومن جهة أخرى اذا كان الاب والام لا يتجهان الى أهداف مرغوبة من الطفل ، لاتجه الطفل وجهة أخرى بحثا عن نماذج ملائمة له ، ومن الاسباب التى تجعل دور السينما محبوبة جدا ، هو أن المشاهد يستطيع ان يتقمص البطل الناجح او البطلة الناجحة ، أو الشرير اذا اختاره• وبذلك يشبع رغباته المحبطة اشباعا تعويضيا • ويقصد بالاشباع التعويضي أن الشخص نفسه لا يصيب الهدف ولكنه يتقمص شخصا آخر اصابه • فاذا لم يستطع شخص ان يكون هو نفسه مشهورا ، يمكن ان يستمد الاشباع بالارتباط فحسب بشخص مشهور •

وينبغي أن يركز في الذهن ان التقمص الموجه الى هدف ، عادة ما يكون منصبا على الصفات الفردية لشخص آخر ، وليس بالضرورة على الشخص كله • فالطفل قد يتقمص قوة ابيه البدنية دون أن يتقمص اهتماماته بالقراءة ولعب الجولف ، وذلك لان القوة البدنية هى التي يعتبرها هامة ، لا هوايات الاب • وعلى أية حال ، فالتقمص ينحو نحو التعميم ، معنى هذا انه اذا كان الشخص يتقمص بعض سمات ، فيحتمل أن يميل الى تقمص سمات اخرى كذلك • وفضلا عن هذا ، قد يكون من

الصعب عزل تلك الخصائص التى تجعل شخصا آخر ناجحا عزلا دقيقا حاسما ، وبالتالى ، فالمرجح أن يتم تقمص كامل لا تقمص جزئى •

فحين يفقد شخص موضوعا مرغوبا فيه او لا يستطيع امتلاكه ، فقد يحاول ان يستعيده او يضمنه بأن يجعل نفسه شبيها به • هذا النمط من التقمص يمكن ان نطلق عليه تقمص الموضوع الضائع •

وتقمص الموضوع الضائع شائع بين الاطفال الذين نبذهم آباؤهم ، فهم يحاولون أن يستعيدوا حب الوالدين بأن يسلكوا سلوكا مطابقا لما يتوقعه آباؤهم • فقد يتقمص الطفل ما يظن ان والديه يريدانه • أو قد يحل شخص فقد والده بالانفصال او الموت ، مشكلته بأن يشكل طابعه على نسق المثل العليا التي كانت لابيه • في هذه الامثلة نرى أنه ليس من الضروري أن يكون طابع الوالدين الحالى هو الطابع المحدد لنوع التقمص الذي يقوم به الطفل • فالاحرى أن الطفل يحاكى معايير وقيم الوالدين • هذه هى الطريقة التي يتم بها تشكيل « الأنا المثالى » •

وقد يعين تقمص الموضوع الضائع على الاحتفاظ بالموضوع الحالى • فالطفل اذ يحسن سلوكه الأن يستعيد عطف الوالدين • او قد يعين على أن يأخذ مكان الموضوع الضائع • فاذا تبنى شخص خصائص الشخص المفقود ، لغدا هذا الاخير جزا من شخصية الاول • ان الشخصية في ثنايا نموها تصطبغ بصبغة كثير من الشحنات الانفعالية الموضوعية المفقودة •

والنمط الرابع من أنماط التقمص هو الذي يتقمص فيه شخص الموانع التى تفرضها سلطة ما • وغرض هذا النوع من التقمص هو تمكين الشخص من أن يتجنب العقوبة بأن يغدو راضخا لمطالب عدو شديد البأس•

فهنا يحدث التقمص بدافع الخوف لا بدافع الحب . مثل هذه التقمصات هي الاساس الذي ينهض عليه الضمير . ان شبكة القوى الكابحة التي تؤلف الضمير تمثل اندماجا للموانع الابوية . واذ ينظم الطفل سلوكه تبعا للموانع المفروضة عليه من ذاته (الشحنات الانفعالية المضادة) يتجنب فعل تلك الاشياء التي قد يعاقب عليها . وكلما شب الطفل تكونت تقمصات مماثلة بفضل مطالب اناس آخرين متسلطين عليه .

واذ يتقمص الطفل اشكال السلطة يغدو اجتماعيا . ويعني هذا انه يتعلم كيف يخضع لقواعد ونظم المجتمع الذي يعيش فيه . وبخضوعه لهذه القواعد ، يتجنب الالم ، ويحصل على اللذة . وينهض استقرار المجتمع الى حد كبير ، على التقمصات التي يقوم بها الجيل الاصغر مع مثل وموانع الجيل الاكبر صاحب السلطة . وقد يثور الجيل الاصغر على العرف الجاري ، بيد أنه عادة ما ينتهي الى أن يتواءم مع المجتمع .

وقبل ان نترك هذا الموضوع يجمل بنا ان ننوه بشكل بدائي جدا من اشكال التقمص . يتألف هذا من أكل شيء لكي يتحول الى الشيء المأكول . مثلا ، صياد يأكل قلب الاسد الذي قتله لكي يصبح في مثل شجاعته . هذا النمط البدائي من أنماط التقمص لا يزال قائما بصورة رمزية في الطقوس المسيحية . فبأكل « الرقاق » وبشرب النبيذ ــ وهما رمزان لبدن المسيح ودمائه ــ يعتقد ان الشخص يغدو أقرب شبها بالسيد المسيح .

★★★

رأينا في هذا الفصل كيف ان التقمص يشكل الشخصية ، اذ يولد ألوانا من الشبه بين الشخص وبين خصائص الموضوعات ، وهي عادة

جانبا انواع « النرجسية » ـ تأتى من الاحباط ومن العجز والقلـق • والغرض الذي يؤديه التقمص هو تصريف توتر مؤلم متسبب عن الاحباط والعجز او القلق •

وقد درسنا في هذا الفصل أربعة انماط من التقمص هى :

(١) التقمص النرجسي ، وهو الذي عرفناه بأنه انتشار الشحنات الانفعالية الذاتية من صاحبها الى اشخاص آخرين وأشياء أخرى تشبه الذات (٢) التقمص الموجه الى هدف ، وقد عرفناه بأنه تشكيل شخصية فرد على نسق شخصية فرد آخر يحقق اهدافا يرغب الاول في تحقيقها • (٣) تقمص الموضوع الضائع ، وقد عرفناه بأنه اندماج للموضوعات المرغوب فيها التى افتقدها الشخص او لم يكن في وسعه امتلاكها (٤) والتقمص مع المعتدى وقد عرفناه بأنه اندماج للموانع التى يفرضها شكل من اشكال السلطة •

١٥ — النقل والتسامى :

في دراستنا للغرائز في الفصل الثالث نبهنا الى أن أشد قسمات الغريزة تنوعا هو الموضوع او الوسيلة التي يتحقق في كنفها هدف الغريزة ـ اعنى تخفيف التوتر • فاذا لم يكن موضوع ما مهيأ ، قد تنتقل الشحنة الانفعالية منه الى موضوع مهيأ ، هذا يعنى ان للطاقة السيكولوجية خاصية التنقل • والعملية التي يتحول فيها مجرى الطاقة من موضوع الى موضوع آخر تسمى عملية النقل • ويتم نمو الشخصية الى حد كبير بسلسلة من انتقالات الطاقة او ابدالات الموضوع • ومنبع الغريزة وهدفها يظلان كما هما حين تنتقل الطاقة بينما الموضوع المستهدف وحده هو الذي يتنوع •

واسباب النقل مثيلة لتلك الاسباب التي تولد نمو الشخصية اعنى ، النضج والاحباط والصراع والقصور والقلـق . تأمل ، مثلا ، سلسلـة الانتقالات التي تحدث في حالة ما يطلق عليه الاشباع الفمى . فالفـم والشفتان هى مناطق حساسة ترتبط ارتباطا وثيقا بفعل الاكل . وتنبيه الشفاه بحلمة الثدى تدفع الطفل الى المص . ومع ان المص يؤدي غرض اشباع الجوع نجد أن التنبيه اللطيف الرقيق للشفاه يحقق لذة في ذاته . والامتناع عن هذا التنبيه فترة يفضي الى التوتر المؤلم . هنالك بعبارة اخرى ، حاجة الى المص اذا لم ترض ارضاء تاما بتناول الطعام ، فانها تعبر عن ذاتها بطرق اخرى . فقد يمتص الطفل اصابعه ذاتها او اية اشياء اخرى في متناوله . واذا عوقب الطفل على مص أطراف اصابعه اكتشف موضوعات اخرى او اعطى موضوعات اخرى ، أعنى مثلا ، مصاصة مـن الحلوى يستطيع ان ينعم بمصها دون ان يخشى عقابا . وكلما شب عن اوده نحى جانبا ، تحت الضغط الاجتماعى ، الصور الطفولية لتنبيه الشفاه ، وبدأ يتبنى وسائل البالغين ، مثل التدخين ، وترطيب الشفاه باللسان ، واستخدام أحمر الشفاه ، الشرب ، الصفير ، الغناء ، الحديث ، مضغ اللبان ، والتباك، والبصاق ، كل هذه بعض وجوه النشاط الفمية التى يمارسها الراشد .

وليس يعنى هذا ان هذه الشحنات الانفعالية البديلة تعتمد فحسب على تحول المص الغريزي وطاقة الجوع . فان غرائز أخرى قد تجـد أيضا شيئا من الاشباع في العادة الفمية ، في نفس الوقت الـذي تخف فيه التوترات الفمية المكانية . فالتقبيل مثلا هو اشباع جنسي أيضـا ، وشرب المشروبات الكحولية قد يخفف كثيرا من أنواع التوتر الى جانب توتر الشفاه ، والواقع ان من خاصية الاختيارات الموضوعية للراشد انها تتحدد باجتماع طائفة واردة من منابع حيوية عديدة .

ويعرف هذا بامتزاج الغرائز • فالدوافع الى اهتمامات الراشد ومفضلاته دوافع معقدة لا كما هو الشأن عند الاطفال • وقد اطلق «فرويد» على هذه الاهتمامات والمفضلات انها متضافرة العلل • وانسياق غرائز متعددة نحو موضوع تمثل تركيزا لمنابع الطاقة • فنشاط من قبيل رعاية الاطفال او هواية كصناعة نماذج الطائرات يمكن ان تخفف ، في آن واحد، عددا قليلا او كبيرا من توترات لا ارتباط بينها • فالطفل لا يلبث ان يمل ما هو بصدد فعله ، ذلك لان . كل نشاط عنده هو تعبير عن دافع واحد أو دوافع محدودة سرعان ما تشبع •

فما الذي يحدد الاتجاه الذي يسلكه النقل ؟ ولم يختار موضوع دون آخر لكي يكون بديلا للاختيار الموضوعي الاصلي ؟ لم ينمي شخص ما مجموعة من الاهتمامات والتعلقات وينمي سخص آخر مجموعة أخرى مختلفة ؟ لم تتغير الاهتمامات والتعلقات خلال حياة الانسان ؟

ثمة سببان رئيسيان يجعلان الانتقالات تسلك مجرى خاصا : اولا : المجتمع ، واذ يؤدي المجتمع عمله عن طريق ممثليه الرئيسيين أعني الوالدين، يسرى نفوذه على اتجاه الانتقال ، اذ يجيز بعض الاختيارات الموضوعية ويمنع بعضها الآخر • ففي الطفولة يستهجن عادة مص الاصابع بينما يصفح عن لعق الحلوى • والراشدون الذين يقبلون على لعق الحلوى يكونون ما هو بصدد فعله ، ذلك لان كل نشاط عنده هو تعبير عن دافع واحد او سيجار او غليون •

فالراشد الذي يمص حلمة زجاجة اللبن الخاصة بالطفل قد يلقى السخرية والازدراء ، ولكنه يستطيع ان يعب البيرة من زجاجة دون ما حرج • ويفرض المجتمع قيودا على بعض انواع الاختيارات الموضوعية

ولكنه يقدم عادة بديلات مرضية • وحين يفشل المجتمع في تزويدنا ببديلات ملائمة ، ينزع الناس الى استخدام الاشياء المحظورة على نحو ما • خذ مثلا استجابة الناس لمنع صناعة الخمور وبيعهـا في الولايات المتحـدة الامريكية سنة ١٩٢٠ • فقد انتعشت بعض المشروبات الشعبية اذ لم يكن في الوسع منع الناس أيضا من هذا الضرب من الاشباع الفمى •

والمحدد الثانى المهم للاتجاه الذي يتخذه الانتقال ، هو اتفاق التشابه بين الموضوع الاصلى والموضوع البديل ، حتى يبلغ ذلك حدا يجعـل الموضوعين متماثلين تمام التماثل • فاذا سد في وجه الشخص طريـق تصريف توتره ، بحث عن منفذ آخر سيكون أشبه بالطريق الممنوع كلما كان ذلك ممكنا • فاذا أحبط هذا المنفذ أيضا بحث عن موضوع ثالث ، وهلمجرا الى أن يجد واحدا يستطيع ان يسلك منه • وعادة ما تقل درجة التشابه شيئا فشيئا بتعاقب الانتقال بحيث ان الاختيار النهائي قد يكون مختلفا بالمرة عن الموضوع الاصلى وبالتالى اقل منه ارضاء • وحين يقال ان موضوعا اقل اشباعا من آخر ، فهذا يعنى أن نتيجة التفاعل مع الموضوع تفضي الى تخفيف اضأل للتوتر • وبعبارة اخرى ، ان الارتباط بموضوع بديل يترك عند الشخص توترا قائما لم ينصرف • واختياره النهائي يمثل تراضيا ، فالموضوع البديل خير من لا شيء ، ولكنه اقـل اشباعا مـن الموضوع الاصلى • وعلى « الانا » الذي يتحكـم في الموضوع الاخير المختار أن يقوم بكثير من انواع التراضي بين المطالب المتصارعة « للهو » و « الانا الاعلى » ، والعالم الخارجى •

ويمكننا ان نصور بالمثال التالى سلسلة الانتقالات التي يكون فيها كل ابدال متعاقب اقل تقمصا مع الاختيار الاصلى : فان الموضوع الاول لحب الطفل هو ، عادة ، أمه • فهو يراها في الاصل امرأة مثالية ولما كان

مستحيلا عليـــه ان يمتلك أمـــه امتلاكا ينفرد بـــه ، ولمـا كان يكتشف أن لامه نقائص ، فأنه يتجه الى البحث عن بديل يكون كاملا ويمكنه أن يملكه في آن واحد • وقد يقع الاختيار على معلمته في المرحلة الاولى أو على جارة له ، على عمة له ، الا أنه يجد أنهـن جميعا لهـن عيوبهن ولسن ملك يمينه • ثم يقع في حب فتاة أكبر منه سنا ، وربما كانت هذه الفتاة أخته الاكبـر منه أو صديقـة أخيه الاكـبر منه ، أو سكرتيرة والده • وتتحول هذه الاختيارات الى منعطفات عشوائية •

فقد يبدأ أحلام يقظته حول المرأة الكاملة ، أو يحاول أن يجدها في السينما او فيالكتب • واخيرا يستقر عادة عند شخص واقعي معين ، شخص يشبه أمه أو يشبهنسخه مثالية من أمه • في هذا البحث عـن بديل لامه يتراكم انتقال على آخر ، حتى تتالف شبكة كاملة منشحنات الموضوع الانفعالية •. وتتوزع الطاقة الاتية من شحنة مختزنة عـلى عدد كبير من وجوه النشاط كما تندفع المياه من خـزان النهر الاصلي فتوزع على قنوات عديدة جديدة • وقد تتلون اهتماماته وهواياته ، وعاداته أو سماته الشخصية ، وقيمه ، ومواقفه ، ومشاعره ، وما يتعلق به ويؤثره ، يتلون هذا كله بانتقال الطاقة من الرغبة المحبطة لامتلاك أم مثالية لاينازعه فيها احد •

وحين يكون الموضوع البديل موضوعا يمثل هدفا اجتماعيا أسمى ، يطلق على هذا النمط من الانتقال : التسامي • والامثلة على التسامـي هي انطلاق الطاقة نحو أهداف عقلية انسانية ، ثقافية وفنية •

ويتحول التعبير المباشر للغرائز الجنسية والعدوانيةالى أشكـال للسلوك تبدو في الظاهر غير جنسية وغير عدوانية • ويظـل منبع الغريزة

وهدفها في النشاط المتسامي كما كان شانهما في جميـع الانتقالات • ولكن يتغير الموضوع أو الوسيلة التي يخف التوتر بواسطتها •وقد لاحظ « فرويد » أن اهتمام « دافنشي » برسم الحسناوات كان تعبيرا متساميا عن حنينه الى أمه التى انفصـل عنها وهو في مقتبـل العمر • وقصائـد « شكسبير » الغزليـة ، وأشعار « ويتمـان » ، وموسيقى « تشايكوفسكي » ، ورواية « بروست » العظيمة ، نظر الى هذا كله في بعض دوائر المفكرين على أنه تعبير عن حنين للجنسية المثلية • فما دام لم يكن في وسعهم أن يحصلوا على إشباع تام لرغباتهم الجنسية في الحياة الواقعية فقد تحولوا الى ابتكارات خيالية •

والناس الاقل موهبة الذين يحتاجون الى التسامى قدر ما يحتاج اليه الفنانون والكتاب ، يستخدمون اتجاهات اكثر شيوعا لطاقاتهـم الغريزية • ويشير « فرويد » الى أن نمو المدنية يغدو ممكنا بفضل كبت الشحنات الانفعالية الموضوعية البدائية • فالطاقة التي تمنع من التصرف في مسالك مباشرة تنسرب الى قنوات مفيدة اجتماعيا ومبتكرة ثقافيا • ولا يتحقق التسامى تحققا يؤدي الى اشباع كامل ، وانما يبقى دائما ثمـة توتر راسب لا يمكن تصريفه باختيارات موضوعية متسامية • هذا التوتر مسئول جزئيا عن العصبية عند الرجل المتمدن • ولكنه مسئول ايضا عن أسمى ما يحققه الجنس البشرى •

ويبين « فرويد » أن الشخص لا يقلع أبدا عن شحناته الموضوعيـة الاولى • ويعنى بهذا ان الشخص يبحث دائما عن حبه الاول في موضوع بديل • واذ يفشل في العثور على بديل يشبعه اشباعا كاملا ، فهو اما يواصل البحث او يقنع بشيء ادنى • وحين يتقبل الشخص البديل يقال انه قد عوض عن موضوع هدفه الاصلى • فالشخص القصير الذي يرغب في ان يغدو

طويل القامة ، قد يجد العوض في ان يفعل كما يفعل ضخام الاجسام • والشخص الذي يريد ان يحب قد يجد العوض في الشراب او الاسراف في الطعام • والمرأة التي لم تتزوج والتي أحبطت رغبتها في أن يكون لها أطفال قد تجد العوض في ان تصبح مدرسة • ان بنية الشخصية تشمل كثيرا من قبيل هذه التعويضات • والواقع أن معظم اهتمامات الراشد وتعلقاته ، هي تعويضات عن رغبات طفولية وصبيانية محبطة • وليس يعنى هذا أن التعويضات نفسها طفولية ، بل يعنى ان منابع الطاقة التي تعتمد عليها التعويضات في وجودها مشتقة من انتقال الطاقة من اختيارات موضوعية مبكرة •

فالمحامى قد يحصل على اشباع فمى ضخم حين يتناول قضية بالدفاع أمام المحلفين ، والجراح قد يجد منفذا لحوافزه العدوانية في اجراء الجراحات لمرضاه • وعالم النفس قد يشبع رغباته الطفولية في المعرفة الجنسية ، بأن يواصل البحوث العلمية عن السلوك الجنسي • ولكن قد يكون عسيرا أن يقال ان النشاط المهنى للمحامى أو الجراح أو عالم النفس نشاط طفولي فج • ان الطريقة التي تستخدم بها الطاقة هي التي تميز الطفل من الراشد ، وليست منابع الطاقة أو أهدافها النهائية ، فهذه تكاد تكون هي هي في جميع مراحل العمر • فالمحامي بعرضه قضية أمام المحلفين قد يخفف قدرا من التوتر الفمى لا يقل عن ذلك الذي يخففه الطفل بمص قطعة الحلوى • بيد أن الوسيلة التي يستخدمها كل منهما في الحصول على الراحة مختلفة تمام الاختلاف •

والشخص الذي يكرس حياته للبحث في السلوك الجنسي ، قد يصل الى درجة من تخفيف التوترات الجنسية لا تقل عن تلك التي يصل اليها « دون جوان » يمارس بالفعل ما يدرسه العالم ، ولكن نتائج هذه الوجوه

من النشاط يصعب أن تكون واحدة . فالاول يضيف الى تراث المعرفة ، بينما لايعدو ما يصل اليه الثاني مجرد الحصول على اللذة الجنسية وحدها .

والقدرة على نقل الطاقة من موضوع الى آخر هى أقوى وسيلة لنمو الشخصية . فتكوين « الانا » و « الانا الاعلى » يتم ـ كما رأينا في الفصل السابق ـ بانتقال كميات ضخمة من الطاقة من عمليات « الهو » الى عمليات تشكل « الانا » و « الانا الاعلى » . ويتم استكمال نمو «الانا» و«الانا الاعلى» الى حد كبير بانتقالات للطاقة داخل كل منهما . فالشبكة المعقدة لاهتمامات الراشد ، ومفضلاته وقيمه ، ومواقفه ، وهواياته ، واكتسابه لها وتخليه عنها خلال الحياة ، كل هذا يغدو ممكنا بالانتقال . فاذا لم تكن الطاقة النفسية قابلة للانتقال والتوزع لما كان هنالك نمو للشخصية .

وحين يقال ان الطاقة النفسية قابلة للتوزع ، فمعنى هذا امكان تجزئة الطاقة على عدد من وجوه النشاط . ونفس منبع الطاقة يمكن ان ينجز انواعا عديدة مختلفة من العمل ، مثلما يمكن استخدام التيار الكهربائي الممتد الى منزل في تجفيف العيش ، وفي خلط الفطير ، وفي ادارة منظفة الارض ، وفي حلاقة الذقن . فطاقة الغريزة الجنسية مثلا ، يمكن أن توزع على وجوه متعددة من النشاط : كحضانة الاطفال ، وكتابة الخطابات ، ومشاهدة البيسبول ، او أحلام اليقظة .

١٦ ـ ميكانيزمات الدفاع في الانا :

من أهم الاعباء الملقاة على عاتق « الانا » مواجهة المخاطر والتهديدات التي توقع الشخص في الارتباك وتثير في نفسه القلق : فقد يحاول « الانا »

التحكم في الخطر باتباع طرائق واقعية في مواجهة المشكلات ، او قد يتوخى تخفيف القلق باستخدام طرائق ينكر بها او يموه بها او يشوه بها الواقع ، ويعوق هذا نمو الشخصية • وتسمى الطرائق الاخيرة بميكانيزمات دفاع « الانا » وهنالك عدد من هذه الميكانيزمات نصف أهمها فيما يلي :

(ا) الكبت :

الشحنة الانفعالية « للهو » أو « الانا » أو « الانا الاعلى » التى تولد القلق ، قد تمنع من الانطلاق الى سطح الشعور ، أو قد تتصدى لها شحنات انفعالية مضادة • والقضاء على شحنة انفعالية او وقفها بواسطة شحنة انفعالية مضادة يسمى كبتا •

وثمة نوعان من الكبت : الكبت الأوّلي ، والكبت الخالص • فالكبت الأوّلي يمنع اختيارا موضوعيا غريزيا لم يكن ابدا شعوريا من ان يغدو كذلك • والوان الكبت الاولى بمثابة حواجز محددة تحديدا فطريا ، وهى مسئولة عن الاحتفاظ بجزء عظيم من محتويات «الانا» في اللاشعور بصفة دائمة • هذه المكبوتات الاولى قد بنيت في الشخص كنتيجة لخبرة الجنس البشري بالملابسات المؤلمة • فمثلا : الخوف من زنا المحارم ، يقال ان منشأه رغبة قوية في العلاقات الجنسية بين الشخص وأبيه او أمه • والتعبير عن هذه الرغبة جزاؤه العقاب من الوالدين • وحين يحدث هذا مرارا خلال تاريخ الجنس البشرى ، فان كبت رغبة الزنا بين المحارم ينبنى في الانسان ويظل كبتا أوليا • ويعنى هذا أن كل جيل جديد لا يحتاج الى ان يتعلم كبت هذه الرغبة ما دام هذا الكبت نفسه أصبح وراثيا •

وتحريم قوى كهذا التحريم يعنى رغبة قوية في الشيء الممنوع • والا لما كان هنالك حاجة الى كبح قوى •

واذا ظل الانسان بعيدا عن ان يكون على بينة من الامر ، كانت الاختيارات الموضوعية الغرزية الخطيرة غير قادرة على اثارة القلق حول المبدأ القائل بأن ما لا نعرفه لا يمكن ان يجرح شعورنا . ومع ذلك فهذه الاختيارا ت الموضوعية قد تؤثر في السلوك بطرائق عديدة غير مباشرة أو قد ترتبط بمادة تغدو شعورية ، ومن ثم تثير القلق . وقد يتصدى « الانا » عندئذ بالكبت الخالص لذلك النفاذ المقنّع لشحنات « الهو » المهددة ، الى الشعور او السلوك ، والكبت الخالص (يسمى فيما بعد كبتا فحسب) ، يطرد خارج الشعور ذكرى او فكرة او ادراكا خطيرا ويقيم سدا دون أي شكل من أشكال التصريف الحركي . فمثلا قد يمنع الكبت شخصا من أن يرى شيئ واضح الرؤية ، أو يشوه شيئا يراه الشخص بالفعل ، أو يموّه المعلومات الواردة من أعضاء الحس بغية حماية « الانا » من أن يملك موضوعا خطيرا او مرتبطا بخطر قد يثير القلق . وبالمثل ، يمارس الكبت نشاطه على الذكريات الخاصة بصدمات نفسية أو على ذكريات مرتبطة بتجارب خاصة بصدمات نفسية . وقد تكون الذكريات المرتبطة غير مؤذية في ذاتها على التمام ، ولكن باستعادتها قد يخاطر الشخص بتذكر التجربة الخاصة بالصدمة النفسية أيضا . وحينئذ يمكن أن تقع شبكة معقدة من الذكريات تحت نفوذ الكبت . وقد تكبت أيضا أفكار خطرة . وفي كل حالة ، سواء أكان المكبوت ادراكا أو ذكرى أوفكرة ، فان الغرض هو القضاء على القلق الموضوعي او العصابي او الاخلاقي وذلك بانكار وجود تهديد خارجي أو باطني لامن « الانا » أو تمويه وجود هذا التهديد .

ومع ان الكبت ضروري لنمو الشخصية السوية ، ويستخدمه كل فرد بقدر محدود ، فهنالك أناس يعتمدون عليه اعتمادا يبلغ حد استبعاد الوسائل الاخرى لمواجهة التهديدات . ويقال عن هؤلاء الناس أنهم كابتون (أي دوافعهم مكبوتة) . فاحتكاكاتهم بالعالم محدودة ، وهم يدخلون في

الروع أنهم منبوذون ، متوترون ، صارمون ، متجسس عليهم • قد أطبقت شفاههم ، وتخشبت حركاتهم ، وهم يستخدمون قدرا كبيرا من طاقتهم في الابقاء على مكبوتاتهم بحيث لا يبقى لهم شيء كثير لنشاط لاذ منتج في البيئة ومع الناس •

وقد يتدخل الكبت احيانا في العمل السوى لجزء من اجزاء البدن • فالشخص الكابت قد يكون عاجزا جنسيا أو باردا جنسيا لانه يخشى من الدافع الجنسي • او قد ينمو فيه ما يسمى بالعمى الهستيري او الشلل الهستيري • ففي العمى او الشلل الهستيري نجد العينين والعضلات صحيحة كاملة الصحة ، ولكن الشحنات الانفعالية المضادة تمنع الفرد من أن يرى أو من أن يحرك رجلا او ذراعا • ويساهم ميكانيزم الكبت في تنمية كثير من الاضطرابات البدنية ، مثل ذلك : التهاب المفاصل ، والربو، والقرحة • وهي جميعا من أشهر الاضطرابات النفسية الجسمية (السيكوسوماتية) • فالتهاب المفاصل قد ينشأ من كبح العدوان ، اذ قد ينتشر الكبح الى العضلات التي تستخدم في العدوان ، ويخلق حالة من التوتر المؤلم تتطور الى التهاب مزمن في المفاصل ، اذا استمرت مدة طويلة • وكذلك الشأن في الربو ، فقد يعزى الى انتشار الكبت الى ميكانيزم التنفس • فحالة من حالات الخوف قد تتسبب في ان يتنفس الشخص في لهثة ، وبالتالي فهو لا يحصل على القدر الكافي من الاكسجين في جهازه ، ولا يطرد القدر الكافي من ثاني اكسيد الكربون • والاختناق الجزئي المترتب على ذلك يولد لهثة في التنفس هي طابع الشخص المصاب بالربو • وكذلك القرحة قد تتزايد حين ينفذ الخوف الي الهضم •

ومع أن « الانا » هو القائم بالكبت ، فقد يعمل بأوامر صادرة اليه من « الانا الاعلى » حين يقيم كبتا • ويترتب على ذلك أنه كلما كان

« الانا الاعلى » أشد نفوذا في بنية الشخصية ، كان هنالك وجوه كبت أكثر • ووجوه الكبت المتولدة عن « الانا الاعلى » هي النسخة الباطنية لموانع الوالدين التي يفرضانها على الطفل •

وماذا عسى ان يحدث للشحنات الانفعالية المكبوتة ؟ فقد توجد في الشخصية دون ما تغير يصيبها ، وقد تقتحم السدود المواجهة لها ، أو قد تجد متنفسا لها بالنقل ، او قد يرفع الكبت • مثلا ، دافع الغريزة الجنسية قد يتزايد تزيدا عظيما اثناء المراهقة بحيث يقضي على المقاومات التي وضعت أثناء الطفولة • وكذلك الشخص الذي كبت حوافزه العدوانية قد ينقلب شديد العدوان اذا وقع تحت تأثير استثارة قوية • وحين يتحطم سد الكبت ، تتدفق الطاقة عادة بعنف ، مثلما يحدث عندما ينطلق الصبي من المدرسة بعد انتهاء الدراسة •

ويتيح النقل للشحنات الانفعالية المكبوتة أن تجد نوعا من الاشباع القليل أو الكثير • ومهما يكن من امر ، فمن الضروري للنقل من أن يخفى المنبع الاصلي للشحنة الانفعالية ، والا اكتشف « الانا » الامر ، ودفع ميكانيزم الكبت للعمل من جديد • فالطفل الذي كبت عدوانه نحو والده ، قد يعبر عن هذا العدوان وهو راشد في شكل رمزي بخرق القانون أو بالتمرد على عرف المجتمع وتقاليده • وكثيرا ما تجد الرغبات المكبوتة اشباعا رمزيا في الاحلام • فالحلم بدخول منزل مثلا ، قد يرمز الى رغبة جنسية نحو الام ، اذا كان المنزل والام مرتبطين معا في ذهن صاحب الحلم • وكبت الرغبة لعقاب شخص ما ، قد يفضي بالشخص الى عقاب ذاته بطرائق غير مباشرة مثل ارتكابه لحوادث او فقدانه لاشياء أو وقوعه في أخطاء سخيفة • وقد تعبر الشحنة الانفعالية المكبوتة عن ذاتها في شكل انكار حرفي لذات الشيء الذي يرغب الشخص فيه • فالمناداة : « بأنني لا أريد

ذلك » قد تعنى « اننى أريده » وحين يقول شخص : « هــذا آخر شيء أفكر فيه » قد يعني هذا «أنه أول شيء يفكر فيه » •

وقد ترتفع المكبوتات حين يختفى مصدر التهديد ، بحيث لم يعد للكبت أي داع • ومع ذلك فرفع الكبت لا يحدث آليا ، فعلى الانسان أن يكتشف أن الخطر لم يعد له وجود ، ويكتشف ذلك باختبار الواقــع • ومن الصعب القيام باختبار كهذا حين يكون الكبت قائما في مكانه • ومع ذلك فالكبت لا يختفى الا حين يتم الاختبار • وذلك هو السبب في احتفاظ الشخص بعدد من المخاوف التى لا ضرورة لها والتي ظلت رابضة فيه منذ الطفولة ، فهو لم يجد البتة فرصة لاكتشاف أن الخطر لم يعد لــه أي أساس •

ومع أن الكبت مسئول عن كثير من الحالات الشاذة ، فــلا ينبغي التهوين من شأن دوره في نمو الشخصية السوية • فان اقامة منطقة دفاع من القوى الكابتة ، ضد الشحنات الموضوعية الغريزية « للهو » تحمى « الانا » الطفولى من هجمات « الهو » وتمكن « الانــا » مــن تنمية مصادره وقدراته الكامنة • وحين يكتسب « الانا » قوة كافية لمواجهــة الخطر بطرائق أكبر حظا من المعقولية ، لا يكون ثمة ضرورة للكبت ويشكل بقاؤه فجوة في نشاط « الانا » • ورفع وجوه الكبت مع تقدم سن الانسان يحرر الطاقة المرصودة على الشحنات المضادة الى اعمال اكثر انتاجا •

(ب) الاسقاط :

حين يشعر شخص بقلق ناجم من ضغط على « الانا » آت من «الهو» أو « الانا الاعلى » ففي وسعه ان يحاول التخلص من قلقه بنسبة السبب فيه الى العالم الخارجى • فبدلاً من أن يقول : « أنا أكرهه » في وسعه

أن يقول : «هو يكرهني » ، او بدلا من أن يقول :«ان ضميري يزعجني » يمكن ان يقول : « انه ليزعجني » • ففي الحالة الاولى ينكر الشخص أن العداء صادر من « الهو » وينسبه الى شخص آخر • وفي الحالة الثانية ينكر الشخص مصدر مشاعر الاضطهاد وينسبها الى شخص آخر • ويطلق على هذا النمط من دفاع « الانا »ضد القلق العصابي والاخلاقي الاسقاط •

والطابع الجوهرى للاسقاط هو ان موضوع الشعور أعنى الشخص ذاته قد تغير • ويمكن للاسقاط أن يتخذ صورة تبادل الفاعل والمفعول به « فأنا أكرهك » تنقلب الى « أنت تكرهنى » • او قد يتخذ صورة استبدال فرد بفرد آخر مع بقاء الموضوع كما هو ؛ « فأنا أعاقب نفسي » تتعدل الى « هو يعاقبنى » • فان ما يحاول « الانا » عمله حين يستخدم الاسقاط هو تحويل القلق العصابي أو الاخلاقي الى قلق موضوعي • فالشخص الذي يخاف من دوافعه العدوانية والجنسية يحصل على شيء من الراحة من قلقه بأن ينسب العدوان والجنسية الى أناس آخرين • فهم وحدهم العدوانيون وهم وحدهم الجنسيون ، لا هو • وبالمثل الشخص الذي يخاف من ضميره يواسي نفسه بفكرة أن أناسا آخرين مسؤلون عن ازعاجه وليس ضميره •

فما هو غرض مثل هذا التحول ؟ ان غرضه هو تحويل خطر داخلى من « الهو » أو « الانا الاعلى » ، يصعب على « الانا » احتماله ، الى خطر خارجي أيسر « للانا » مواجهته • وللشخص عادة فرصة أكبر ليتعلم كيف يواجه مخاوف موضوعية من قدرته على اكتساب الحنكة في التحكم في القلق العصابي والاخلاقي •

ان الاسقاط يفعل اكثر من العون على تخفيف القلق • انه ليزود

الشخص بعذر للتعبير عن مشاعره الحقيقية • فالشخص الذي يعتقد أنه مكروه او مضطهد قد يستخدم هذا الاعتقاد كتبرير للهجوم على عدو خيالي • وباستخدامه تعلة الدفاع عن نفسه ضد أعدائه يكون في مقدوره أن يحصل على اشباع لدوافعه العدوانية • وهو يحصل على اللذة دون أن يشعر بالاثم ، ذلك لانه يشعر ان عدوانه له ما يبرره • والحق ان المسألة كلها هي هروب تام او تبرير لكى يتجنب الشخص مسئولية عمله بلوم شخص آخر •

وكلمة تبرير تستخدم هنا بمعنى العثور على عذر مبرر آخر او ملاذ في العالم الخارجي ، لاتيان فعل لا يرضى عنه « الانا الاعلى » • والتبرير يشير أيضا الى الاستعاضة عن باعث لا يرضى عنه المجتمع بباعث يرضى عنه• فالشخص الذي يمنح قدرا كبيرا من المال للاحسان قد يظن انه يفعل ذلك عن طيبة قلبه بينما الباعث الحقيقي له هو رغبته في التظاهر ، او ضمير شاعر بالاثم • والواضح ان الانسان لا يمكن أن يكون واعيا بالاسقاط أو التبرير العقلى ، والا لما استطاعت الميكانيزمات أن تخفف التوتر • ويصدق هذا على جميع ما يتخذه « الانا » من وجوه الدفاع ، فان هذه الوجوه لا بد أن تعمل عملا لاشعوريا حتى يمكن أن يكون عملها فعالا في تخفيف التوتر •

ان اسقاط موانع وعقوبات « الانا الاعلى » يتم في يسر لان « الانا الاعلى » هو الممثل الباطني لشيء كان في الاصل خارجيا • فقبل تشكل « الانا الاعلى » ، كان الوالدان هما اللذان يفرضان الموانع ويوقعان العقوبات • وبالتالي فكل ما كان خارجيا يمكن ان يعود الى ما كان عليه من جديد • ومن المرجح أن يحدث هذا حين لا يكون « الانا الاعلى » قد ركز ركوزا مأمونا في بنية الشخصية • فالشخص الذي يضعف ركوز

« الانا الاعلى » عنده هو اكثر استعدادا لان ينسب مشاعره الآثمة الى اضطهاد الآخرين له ، ذلك لانه يشعر ان الزواجر تأتى من مصادر بعيدة لا من ذات نفسه • والاسقاط هو ميكانيزم دفاعي واسع الاختصاص ؛ ذلك لان الانسان كان منذ اقدم العصور ، يتشجع على البحث عن اسباب سلوكه في العالم الخارجي ، وكان لا يتشجع على البحث في بواعثه هو وتحليلها • فضلا عن ذلك ، ان الانسان يتعلم أن في وسعه تجنب العقوبة واللوم الذاتي ، بأن يبتكر اعذارا مقبولة لافعاله السيئة • فهو في الواقع يجازى على تشويه الحقيقة •

وثمة نمط آخر من الاسقاط ، قد لا يبدو لاول وهلة ، ذا طابع دفاعي ، يتمثل في المشاركة في مشاعر الناس جميعا وافكارهم • فالانسان يشعر بالسعادة ويظن أن غيره من الناس يشعرون بالسعادة أيضا • وقد يشعر شخص بالشقاء ويظن ان العالم مليء بالشقاء • ويتضح لنا ، بالتحليل العميق ، الطبيعة الدفاعية لمثل هذا اللون من الاسقاط • ذلك لانه اذا لم يكن سائر الناس سعداء ، لتعرضت سعادة الشخص للخطر ، اذ قد تجعله يشعر بالاثم لانه سعيد بينما الآخرون ليسوا سعداء • ولكي يمحو هذا التهديد ، ينسب الشخص السعادة للآخرين كما ينسبها لنفسه • واذا استطاع الانسان ان يقنع نفسه بأن معظم الناس ليسوا شرفاء لكان من الايسر له الا يكون شريفا دون ان يشعر بالاثم • فالطالب الذي اعتاد الغش أثناء الامتحانات كثيرا ما يلتمس العذر لنفسه على أساس ان كل طالب آخر يكاد يغش ايضا • او اذا كان يعتقد ان الاتصال الجنسي دون ما ضابط أمر شائع ، ففي وسعه أن يتخذ من هذا الاعتقاد ذريعة لمداعباته الجنسية • هذا النمط من الاسقاط لا ينطوي على كبت للباعث الحقيقي وعلى استبدال واحد بآخر • فالشخص يقر بأنه يملك الباعث ، ولكن اسقاط الباعث على الآخرين يخفف قلقه الاخلاقي •

(ج) تكوين رد الفعل :

يمكن ترتيب الغرائز ومشتقاتها في أزواج متقابلة • فالحياة ضد الموت ، والحب ضد الكراهية ، والبناء ضد الهدم ، والعمل ضد السلبية ، والسيطرة ضد الاستسلام ، وهلم دواليك • فحين تثير غريزة من الغرائز قلقا بأن تضغط على « الانا » اما ضغطا مباشرا او بواسطة «الانا الاعلى»، يحاول الانا ان يقطع السبيل على الدافع الهجومي بالتركيز على ضده • فمثلا ، اذا كانت الكراهية التى يستشعرها واحد ضد آخر تجعل الاول قلقا ، فان في وسع الانا أن ييسر غمرة الحب ليخفى العداوة • وقد يكون في وسعنا أن نقول ان الحب قد حل محل الكراهية ، ولكن ليس هذا صحيحا ، ذلك لان المشاعر العدوانية ما برحت موجودة وراء مظهر الحب الخارجي • وقد يكون من الانسب القول بأن الحب هنا قناع يخفى الكراهية • وهذا الميكانيزم الذي يعمل حيث تختفى غريزة خلف ضدها ، يطلق عليه تكوين رد الفعل •

وكيف نستطيع التمييز بين شحنة انفعالية بسيطة لموضوع ، وبين شحنة ناتجة عن تكوين رد الفعل ؟ مثلا ما الذي يميز الحب الذي ينجم عن تكون الرجع من الحب الحقيقي ؟ ان القسمة الرئيسية المميزة للحب الناجم عن تكون الرجع هى انه حب مقلد ، من الميسور كشف كذبه ، كذلك الحب الذي كانت تبديه الملكة في قصة « هاملت » • وثمة قسمة أخرى من قسمات تكوين رد الفعل هي ما يبدو فيه من توتر وإكراه • فالشخص الذي يدافع عن نفسه ضد القلق بواسطة تكوين رد الفعل لا يمكن ان يبتعد عن التعبير عن ضد ما يشعر به بالفعل • فحبه مثلا ليس فيه من المرونة ما يجعله يتلاءم ويتوافق مع الملابسات المتغيرة شأن الانفعالات الطبيعية • بالاحرى ، لا بد له أن يحتفظ بصورة هذا الحب كما هى اذ ان أي فشل في عرض هذه الصورة سيؤدي الى انكشاف الشعور المضاد •

والخوف المرضي مثل على تكوين رد الفعل • فالشخص يريد مـا يخافه ، فهو لا يخشى الموضوع ، وانما يخشى الرغبة في الموضـوع • والخوف المنعكس يمنع هذه الرغبة المخيفة من أن تشبع • وتأتى تكوينات رد الفعل من « الانا الاعلى » • فالواقع اننا يمكن ان تتمثل «الانا الاعلى» على انه جهاز لتكوين ردود الافعال ، نما لكى يحمى « الانا » مـن « الهو » ومن العالم الخارجي • فالمثل العليا للفضيلة والخير قـد تكون تكوين ردود افعال ضد شحنات الموضوع الاولية اكثر من كونها قيمـا واقعية في مقدورها ان تحيا • والافكار الرومانسية للطهارة والنقاء يمكن ان تقنّع رغبات جنسية أولية • فالايثار قد يخفى الانانية والتقوى قـد تخفى الخطيئة والاثم •

وتكوين ردودالافعال تستخدم ضد التهديدات الخارجية كماتستخدم ضد التهديدات الباطنية • فالشخص الخائف من شخص آخر قد ينقلب الى صديق له • او ان الخوف من المجتمع قد يتخذ صورة الطاعة الدقيقة لتقاليد المجتمع وقواعده • وحيثما كانت المبالغة والتهويل والمتابعة الدقيقة الصارمة للقواعد ، يمكن للانسان ان يكون على يقين من أن هذه المتابعة هي تكوين رد الفعل • وخلف هذا القناع مـن المتابعة يغلي الشخص في الواقع ثورة وتمرّدا •

وثمة مثل هنا لتكوين رد الفعل نراه في الرجال الذين يخافون من أية علامة من من علامات الرقة والنعومة في هيئة ملبسهم ، التي تعادل في نظرهم الانوثة ، فهم يحاولون ان يغطوا ميولهم الانثوية بأن يكونوا بوجه خاص في صورة ذكورة وصرامة • وكنتيجة لهذا يصبحون كاريكاتورا للذكورة اكثر من كونهم رجالا بالفعل • وقد تحاول النساء اخفاء أنوثتهن خلف رداء من السلوك الذكورى •

ويرضى تكوين رد الفعل أحيانا الرغبة الاصلية التي يدافع ضدها • فالام التى تخشى ان تصرح بأنها غير راضية عن اطفالها قد تتدخل كثيرا في حياتهم بحجة أنها حريصة على سعادتهم وأمنهم ، بحيث ان مبالغتها في حمايتهم هى في الواقع صورة من صور العقوبة •

ان تكوينات ردود الفعل هي تكيفات غيره تعلقة للقلق • وهي تصرف الطاقة في أغراض خداعة منافقة • وهي تشوه الواقع ، وتجعل الشخصية صارمة مفتقرة الى المرونة •

(د) التثبيت :

مع أن النمو النفسي شأنه شأن النمو البدني عملية متصلة تدريجية في العقدين الاولين من حياة الانسان • فمن الممكن أن نميز المراحل المحددة التى يتم فيها نمو الشخص وتقدمه • فهنالك مثــلا اربعة مراحــل هى الطفولة والصبا ، والمراهقة ، والرشد • ومن الطبيعي ان يمر الشخص من مرحلة الى اخرى بتقدم يكاد يكون منتظما • واحيانا يقف التقدم ويظل الشخص على درجة واحدة من درجات السلم بدلا من ان يصعد الى الدرجة التالية • حين يحدث هذا النمو البدني نقول ان نمو الشخص قد توقف • وحين يحدث هذا في النمو النفسي نقول ان الشخص غدا مثبتا •

والتثبيت هو دفاع آخر ضد القلــق • فالشخص المثبت يخشى أن يخطو الخطوة التالية بسبب الصدف والمشقات التى تنتظره • وأغلــب الاطفال يستشعرون الهيبة اول يوم يذهبون فيه الى المدرسة • وكذلك المراهق لا يكون راضيا هادئا تماما في موعد غرامه الاول ، وطالب المعهد العالى او الجامعة ينظر امامه بمزاج من الرهبة والتوقع لدرجته الجامعية التى تنتظره ؛ والواقع ان كل شخص يشعر ببعض القلــق حينما ينهض

بمخاطرة جديدة أيا كان نوعها • والقلق الذي يمارسه الشخص حين يترك شيئا مألوفا قديما الى شيء جديد غير مألوف يسمى بقلق الفراق • وحين يتزايد قلق الفراق تزايدا يفوق الحد ، يميل الشخص الى أن يقف بثبات متشبثا بطريقة قديمة في الحياة اكثر من ميله الى ان يخطو الى الامام الى طريق جديد •

فمم يخاف الشخص المثبت ؟ وما هى الاخطار التي تقطع السير المطرد للنمو النفسي ؟ الاخطار الرئيسية هى انعدام الامن ، والفشل والعقاب • فالافتقار الى الامن هو حالة من حالات النفس تنمو حين يشعر الشخص بأنه لا يملك القدرة على مواجهة مطالب ملابسة جديدة • فهو يشعر أن الحالة الجديدة اكبر منه وان النتيجة ستأتى مؤلمة • والخوف من الفشل هو على هذا النمط عينه ، باستثناء خوف اضافي من أن يتعرض للسخرية نتيجة لفشله • فالفشل هو ضربة في الصميم لاحترام الشخص لذاته (للانا المثالى) • وأخيرا هنالك الخوف من العقاب ، وقد يكون اهم الوان الخوف جميعا • فلنفترض ان طفلا يحاول ان يثبت استقلاله عن والديه بتنمية اهتماماته وتعلقاته خارج نطاق الاسرة • معنى هذا انه ينمى شحنات انفعالية لاناس آخرين واشياء أخرى • فقد يقع في الحيرة في اختيارات الموضوع هذه لانه يخاف من أن والديه قد يثأران منه لانه اذ يحب الآخرين ينتقص من حبه لهما ، وكنتيجة لهذا يترك وحيدا لا يحميه أحد • وهو في نفس الوقت ليس واثقا من أن اختيارات الموضوع الجديدة ستعوضه عن فقدانه للحب الابوى • وقد يبدو هذا للصبي او المراهق مأزقا حقيقيا يحدد الخروج منه ما اذا كان سيتقدم او سيقف حيث هو • وهو اميل الى ان يثبت اذا كانت لديه تجربة سابقة بنبذ والديه له •

ومن المضحك ، ولكنه مع ذلك حقيقي ، أن الصبى أشد ميلا الى

ان يرتبط بأمه خوفا لا حبا ، فهو يخاف مما ستفعله هي له اذا حاول ان يعزز استقلاله . والطفل الذي يحس الامن تجاه محبة والديه ويعلم بالتجربة انهما لن ينبذاه لا يميل الى ان يثبت عند مرحلة غير ناضجة من مراحل النمو .

وبالاضافة الى التثبيت عند موضوعات ، هنالك التثبيت في نمو بنية الشخصية وديناميائها . فبعض الناس لا يتخطون مستوى التفكير المغرض ، وبعضهم لا يتعلمون البتة كيف يميزون بين العالم الذاتي وبين الواقع الموضوعي . وفريق ثالث يعيش تحت سيطرة « انا اعلى » صارم او يقبع في رداء من مخاوف الطفولة . وبعض الناس يثبتون عند ميكانيزم دفاعي خاص تتبلور حوله شخصيتهم . وبعض الناس يمكثون عند حد سلوك اندفاعي تصريفي . فهنالك كل أنواع ودرجات التثبيت التي تحول بين الشخص وبين ان يحقق اقصى امكانياته النفسية . ويكاد يكون كل شخص معوقا نفسانيا بالخوف على نحو ما .

(هـ) النكوص :

وحين يصل الانسان الى مرحلة معينة من مراحل النمو ، فقد يتراجع الى مرحلة اسبق بسبب الخوف . ويطلق على هذا النكوص . فالسيدة الشابة المتزوجة التي تغدو قلقة عقب اول خلاف مع زوجها تلتمس الامن في منزل والديها . والشخص الذي آذاه العالم قد يغلق نفسه في حلم للعالم خاص به . وقد يؤدي القلق الاخلاقي بالشخص الى ان يفعل شيئا اندفاعيا حتى يعاقب كما كان شأنه حين كان طفلا . ان اي افلات من التفكير الواقعي المنضبط يشكل حالة من حالات النكوص .

وحتى الناس الاصحاء المتكيفون تكيفا طيبا ، قد يقدمون على التراجع من فترة الى أخرى لتخفيف حدة القلق . او كما يقولون لاطلاق

البخار من ممكنة • فهم يدخنون ويفرطون في الطعام والشراب ، ويفقدون أعصابهم ويقرضون اظافرهم ، ويخزون انوفهم ، ويخرقون القوانـين • ويتحدثون حديث الاطفال ، ويتخلون عن النظافة ، ويزاولون العادة السرية، ويقرأون القصص الغامضة ، ويذهبون الى السينما ، ويتصلون اتصالات جنسية غير مألوفة ، ويمضغون اللبان والدخان ، ويلبسون ملابس الاطفال، ويقودون سياراتهم بسرعة وتهور ، ويؤمنون في الارواح الطيبة والارواح الشريرة ، ويغفون ، ويتقاتلون ويقتل بعضهم البعض الآخر ، ويراهنون على الجياد ، ويحلمون احلام اليقظة ، ويتألبون على السلطة أو يستسلمون لها • ويقامرون ، ويتأملون انفسهم في المرآة ، وينساقون وراء دوافعهم ، ويطاردون التيوس • ويقومون بالآلاف من هذه الافعال الصبيانية • بعض هذه الالوان من التراجع شائعة جدا بحيث تؤخذ على أنها علامات عـلى النضج ، والواقع أنها جميعا صور من النكوص عند الراشدين • ان الحلم هو مثل جميل للنشاط التراجعي من حيث أنه ينطوي على ضمان اللـذة بواسطة اشباع سحرى للرغبة •

(و) الخصائص للعامة لميكانيزمات الدفاع :

ان ميكانيزمات الدفاع عند « الانا » هى وسائل غير متعقلة لمواجهة القلق ، ذلك لانها تشوه الواقع وتخفيه أو تنكره ، وتمنع النمو النفسي • فهى تقيد الطاقة النفسية التي قد تستخدم في وجوه اكثر فاعلية لنشـاط « الانا » • وحين يغدو الدفاع بالغ النفوذ فانه يسيطر على « الانـا » ويعوق مرونته وقابليته للتكيف • وأخيرا اذا فشلت وجوه الدفاع لـم يعد « للانا » ما يعتمد عليه ، فيكتسحه القلق ، والنتيجة انهيار نفسي •

فلم اذن توجد وجوه الدفاع ما دامت مؤذية من وجوه عديدة ؟ السبب هو ان وجودها امر لازم للنمو • ان الانا الطفولى أضعف من ان يؤلف

وينسق بين جميع المطالب المطلوبة منه . فالانا يتخذ وجوه الدفاع عنـده بمثابة اجراءات وقائية . فاذا لم يستطع « الانا » تخفيف التوتر بالوسائل العقلية لاذ باجراءات من قبيل انكار الخطر (الكبت) ، واخراج الخطر (الاسقاط) ، واخفاء الخطر (تكوين رد الفعل) ، الجمود عند حد معين (التثبيت) او النكوص (التراجع) . ويحتاج « الانا » الطفولى الى جميع هذه الميكانيزمات المساعدة ويستعين بها .

ولم تبقى هذه الميكانيزمات بعد ان توفي الغرض للانا الطفولى ؟ انها تبقى حين يفشل « الانا » في النمو . بيد أن سببا واحدا يؤدي الى فشل « الانا » في النمو ، ذلكم هو ان قدرا كبيرا من طاقة « الانا » مرتبـط بالدفاع عنه . هذه دائرة مغلقة ، فالدفاع لا يمكن ان يتم لقصور «الانا»، ويظل « الانا » قاصرا بقدر اعتماده على وجوه الدفاع . فكيف يشـق « الانا » هذه الدائرة ؟ عامل مهم في هذا هو النضج . فالانا ينمو نتيجة لتغيرات فطرية في الكائن العضوي نفسه ، وبخاصة التغيرات في الجهـاز العصبي . وفي ظل النضج يدفع « الانا » دفعا للنمو .

وثمة عامل هام آخر للنمو الصحيح للانا ، ذلكم هو البيئة التى تزود الطفل بخبرات متعاقبة تتركز حول قدراته على التكيف . والاخطـار والمشقات لا تصل في أي وقت حدا من القوة يؤدي الى شل قدرة الطفل ، كما لا تبلغ من الضعف مبلغ عدم الاثارة . فقد تكون صدف الوجـود وأحداثه في الطفولة صدفا وأحداثا صغيرة ، وفي الصبا الباكر تكـون التهديدات اشد قوة نوعا ما ، وهكذا خـلال سنوات النمو . في هـذه البيئات المتدرجة يتاح « للانا » فرصة التخلى عن ميكاينزماته الدفاعيـة (ففى الشروط المثالية لا يمكن لهذه الميكانيزمات ان تنمو) وأن يحل محلها ميكانيزمات اكثر واقعية وأشد فاعلية .

١٧ ـ تحولات الغرائز :

ان أهم فارق ملحوظ بين الطفل والراشد ، فضلا من الفوارق البدنية في الحجم والقوة ، هو البون الشاسع بين الامكانيات المحدودة لسلوك الطفل ، والنطاق الواسع لنشاط الراشد • فالطفل ينفق طاقته في طرق قليلة فحسب ، بينما للراشد دائما امكانيات لامحدودة • فكيف تجد الطاقة مسالك جديدة للتعبير عن ذاتها ؟ وكيف يحدث ان الغرائز الاساسية للحياة والموت ــ وهي منبع الطاقة النفسية كلها ــ تتوزع في جميع الاتجاهات وتزود بالقوة الباعثة انواعا عديدة مختلفة من تفاعلات الراشد مع البيئة !؟

اولا : من المهم ان نكون على بينة من بعض الامور الاساسية • فغرائز الحياة والموت في « الهو » تحتوى أصلا على الطاقة النفسية كلها• فالطاقة النفسية تتولد من تحول الطاقة البدنية • وهدف الغرائز هو محو الاثارات وابقاء الشخص في حالة من الراحة العقلية والفسيولوجية (التحرر من التوتر) • فالغرائز تميل الى تحقيق غرضها باستخدام الطاقة في عمل نفسانى ، اعنى في الادراك ، والتذكر ، وفي التفكير • وحين يتم العمل النفساني اعنى حين تصاغ خطة العمل ، تنطلق الطاقة العضلية في صورة فعل حركى • فالشخص يعمل شيئا ؛ يتكلم او يمشي او يستخدم يديه للوصول الى النتيجة التي يرغب فيها • والنتيجة المرغوبة هي دائما تخفيف التوتر • ويتم هذا بمحو الحالة المسببة للاضطراب التى تولد التوتر • أما كيف تتحول خطة عقلية للعمل الى نشاط بدنى فهذا ما لا نعرفه• واما ان هذا يحدث فهذا امر بيّن جليّ لكل شخص فكر تفكيرا شعوريا في عمل شيء ثم أداه بالفعل •

وحين تتساءل لم يفعل شخص شيئا ، سواء أكان ذلك جمع الفراشات ، أو غسل عربته ، او ادارة مخرطة او تأليف كتاب ، فا نما نريد

معرفته هو ما يحركه الى هذا العمل • ماهى الغريزة الخاصة التي تقود عملياته النفسانية على هذا النحو بحيث تتأدّى به الى جمع الفراشات أو غسل السيارة ، او ادارة مخرطة او تأليف كتاب ؟ قد نظن ان ثمة غريزة نوعية لكل وجه من وجوه هذا النشاط ، ولكن لا يكاد هذا يبدو تفسيرا مقبولا • على الاقل ليس هذا تفسيرا اقتصاديا ، والعلم يجاهد من أجل الاقتصاد •

احرى بنا ان نبحث عن الاجابة فيما يطلق عليه « فرويد » الغرائز وتقلباتها • فالاجابة على السؤال : لمَ يتسع النطاق المحدود لسلوك الطفل بحيث يشمل هذا التنوع في سلوك الراشد ؟ قد تجرنا على نحو ما الى ان نعود الى كل ما بحثنا في الفصول السالفة من هذا الكتاب • وقد تكون اجابتنا المجملة هى ان تكوين « الشخصية » من ثلاثة أجهزة واستخدامها في الشحنات الانفعالية والشحنات الانفعالية المضادة ، والشبكة المعقدة للتفاعل بين « الهو » و « الانا » و « الانا الاعلى » ، وتفاعل هذه العناصر الثلاث كلها مع العالم ، هذا كله يفسر التعقد المتزايد للسلوك •

وبدلا من أن نعيد كل ما قلناه نقصر انتباهنا على بعض الاعتبارات الهامة • اولا : قلما يكون نشاط الراشد بل قد لا يكون بالمرة ـ نتيجة لغريزة واحدة من غرائز الحياة او الموت • فان أي عمل خاص اقرب ان يكون نتيجة لاندماج غرائز • فالانسان يتعلم من التجربةأنه يستطيع ان يخفف من التوتر الناجم في آن واحد من عدد من المنابع ، بأن يرتبط بنشاط معقد • فلاعب الكرة مثلا يشبع عددا من الغرائز او مشتقاتها حين يلعب الكرة • ويكاد أي نشاط ان يكون تركيزا لمجموعة معقدة من البواعث • ان اندماج الغرائز يتم بواسطة وظيفة تأليفية ينهض بها «الانا» • وبحدث اكثر من ذلك فيما بعد •

ثانيا : ان أي نشاط قد يمثل تراضيا بين قوى موجهة (شحنات انفعالية) ، وبين قوى مقاومة (شحنات انفعالية مضادة) . ولا يستطيع الشخص ـ كنتيجة للمقاومات ـ ان يصرف توتره تصريفا مباشرا ، فعليه ان يجد مكانا وسطا بين الاشباع التام وبين عدم الاشباع بالمرة . فمثلا عاطفة الحب تمثل تراضيا بين اشباع الحافز الجنسي وبين مقاومات « الانا » وزواجر « الانا الاعلى » ضد هذا الاشباع ، وبالمثل النقد الكلامي هو في منزلة وسط بين الاعتداء البدني وعدم الاعتداء . والسبب في تكوين هذا التراضي نجده في المثل القديم القائل : « نصف رغيف خير من لا خبز بالمرة » .

ويتمخض عن هذه الانتقالات ـ فهذا هو ما تكونه في الواقع وجوه التراضي ـ اكتساب بواعث جديدة (شحنات انفعالية موضوعية) . فحين يستعيض شخص بالحب عن الجنس ، يقال انه قد كوّن باعثا جديدا . والواقع ، مع ذلك ، أن الباعث الجديد لا ينطوي على أي تغيير في القوة الموجهة الاصلية أو في الغرض النهائي . فالقوة القائدة ما برحت مزوّدة بالغريزة الجنسية ، والغرض ما يزال هو محو التوتر الجنسي . فالذي تغير هو الوسيلة التي يحقق بها الغرض . فالانسان يحاول ان يخفف التوتر الجنسي بأن يعبر عن الحب تعبيرا لا جنسيا . هذه البواعث الجديدة أو الشحنات الانفعالية الموضوعية ، تسمى مشتقات الغريزة .

وتبلغ مشتقات الغريزة من الكثرة الحد الذي يبلغه عدد الانتقالات ، ووجوه التراضي او الحلول الودية التي يستطيع الانسان ان يقوم بها ، وهو عدد لا محدود . والتعلقات ، والمفضلات ، والاهتمامات ، والاذواق ، والمواقف ، والعادات ، والمشاعر ، والقيم ، والمثل العليا ، هي جميعا صور من مشتقات الغريزة .

والشحنات الانفعالية الموضوعية الخاصة بالتراضي ، لا تصرف في العادة التوتر كله • فالحب الرومانسي مثلا ، يترك الشخص وعنده بقية من اثارة جنسية • والغريزة التي تمنع من ان تصرف كل طاقتها يقال عنها انها غريزة كبتت دون ان تحقق هدفها • والغرائز التى كبتت من حيث تحقيق الهدف ، تولد شحنات انفعالية موضوعية قوية ، وقوى قائدة مثابرة ، ذلك لانها لا تتيح تصريفا تاما للطاقة • ويترتب على ذلك أن الاثارات التي لم تصرف تولد تيارا متصلا من الطاقة ، يستخدم في الابقاء على الشحنات الانفعالية الموضوعية •

ويمضي بنا هذا الى نتيجة متناقضة فيما يلوح • فالاهتمامات والتعلقات وكل الصور الاخرى من البواعث المكتسبة تبقى وتستمر ، لانها ــ الى درجة ما ــ محبطة كما هي مشبعة • مثلا ، شخص له اهتمام شديد لا يشبع في الانصات الى الموسيقى الكلاسيك ، فهو لا يحقق اشباعا تاما لهذا الاهتمام • فالانصات الى الموسيقى ليس بديلا مشبعا تماما لاختيار موضوعي اشد اصالة • فعاشق الموسيقى لا يمكن ان يصل الى اشباع تام لان ذلك ليس هو ما يريده في الواقع • ومع ذلك ، فهذا خير من لاشيء •

وكل تراض هو في نفس الوقت تخل • فالشخص يتخلى عن شيء يريده في الواقع ولكنه لا يستطيع الحصول عليه ، ويقبل شيئا يأتي في المرتبة الثانية او الثالثة مما يستطيع • فالحب المقيم الذي يكنه طفل لامه والذي تكنه الام لابنها ، والشعور الطيب الذي يتبادله اعضاء ناد واحد ، وحب الوطن ، وعدد لا يحصى من التعلقات الاخرى التي يكونها الناس يحركها كلها غرائز مكبوتة من حيث تحقيق الهدف •

وثمة انقلاب ثالث تقوم به الغرائز ، ويتم بفعل ميكانيزمات الدفاع •

فوجوه الدفاع – كما ينبغي أن نذكر – تظهر في الوجود لتعين « الانا » على مواجهة القلق • وما دام الخطر الآتى من الغرائز هو أحد مصادر القلق، فان ميكانيزمات الدفاع تحاول أن تحول الخطر بتغيير موضوع الاختيار الغريزي • فغريزة الموت مثلا ، يسقطها « الانا » خارجا في صورة التدمير، او العدوان او التحكم او التسلط او الاستقلال ، والتنافس • ويعنى هذا ان الموضوعات الخارجية تقوم مقام الاختيار الموضوعي الذي هو الشخص نفسه • وبقدر ما يمكن استبعاد طاقة غرائز الموت عن الشخص ، يحول الخطر ، ولا يشعر الشخص بالقلق • هنا أيضا نرى عمل الغريزة التي كبتت من حيث تحقيق الهدف • وبقدر ما لا يمكن البتة ان يكون العمل في موضوع بديل مشبعا تمام الاشباع ، فان اسقاط غريزة الموت يميل الى البقاء • ويفسر هذا كون العدوان خصيصة ثابتة دائمة من خصائص الانسان ، وكون الصورة الاقل تحولا من صور العدوان كالتحكم ، والتسلط والاستغلال والتنافس ، هي الاكثر سيادة والاشد نفوذا • والتعبيرات الاضعف اكثر شيوعا من العدوان الخشن ، لانها اكثر تمثيلا للتراضي • ويترتب على ذلك ان تبقى هذه التعبيرات أشد تزودا بالباعث ، ذلك لانها اذ تفشل في تخفيف التوتر تخفيفا تاما ، فانها تظل ملاذا يعتاد الشخص ان يلوذ به • فالهجوم الاول هو اكثر اشباعا (أعني اكثر تصريفا للتوتر) من التنافس بين غريمين في العمل ، بيد ان الراشدين تنافسهم اكثر من تقاتلهم • والملاحظ ، كقاعدة عامة ، انه كلما كان موضوع الاختيار البديل أشد اختلافا عن الموضوع الاصلي في تخفيف التوتر ، كان نفوذه أعظم على الشخص •

وينتج كبت الاختيارات الموضوعية الغريزية في انواع متعددة من البديل تعمل على اطلاق الطاقة في صور تنكرية ، ويتم التنكر بالاستعاضة باختيار موضوعي عن اختيار موضوعي آخر • وغرض التنكر منع « الانا »

من أن يغدو قلقا • وبقدر ما يعمل البديل على اغاظة « الانا » بقدر ما يولد في نفس الوقت بعض التخفيف في التوتر ويظل الاختيار الموضوعي البديل قائما • فمثلا الشخص الذي كبت غريزة الموت عنده يمكن ان يحصل على بعض الاشباع لرغبة الموت عنده ، بأن يطالع صفحة الوفيات في الصحف ، ويسير في الجنازات ويستمع الى المراثى ويمكن أيضا أن يصبح (حانوتيا)•

وتحتشد الاحلام بتمثلات تنكرية ورمزية لرغبات مكبوتة • وحين يغدو التنكر غاية في الشفافية ، يستيقظ الحالم عادة • واحلام القلق والكابوس مثلا ، يسببها ظهور الرغبات المكبوتة التي تجعل الشخص قلقـــا •

ويؤدي تكوين رد الفعل مفعوله على الغرائز لا بأن يستبدل شيئا بشيء آخر ، كما يحدث في الاسقاط ، بل بأن يسحب من طاقة غريزة قدرا من الطاقة يزود به موضوعا بحيث يمنع طاقة غريزة اخرى من التعبير عن ذاتها• فالتواضع مثلا قد يخفى رغبة في اظهار الذات •

وموجز ما قلناه ، ان جميع وجوه نشاط الشخص الراشد تحركها طاقة غرائز الحياة والموت • ان كل ما يفعله الشخص هو اما (١) تعبير مباشر عن الغريزة ، وفي هذه الحالة قد يكون هذا التعبير اختيارا موضوعيا بسيطا « للانا » مثل الاكل والنوم والتبرز والجماع ؛ أو (٢) قد يحركها تعاون بين غرائز ، أو (٣) قد تمثل تراضيا بين قوى قائدة وقوى مقاومة ، أو (٤) قد تخرج من دفاع « الانا » عن ذاته •

ومع هذا فقد اغفلنا ان ننوه بنوع آخر هام من أنواع التغير يشغل مكانه في الغرائز • فمع ان هدف الغرائز يظل ثابتا مطردا طوال الحياة ،

فان منبع الغرائز ـ الذي هو نوع ما من الاثارة البدنية ـ قد يتغير خلال مجرى النمو فتنشأ اثارات بدنية جديدة ، وتغدو الاثارات القديمة معدلة أو قد تبرز كنتيجة للنضج والمران ، والاثارة ، والمرض ، والتعب والعلاج ، والحمية ، وسن اليأس ، والتفاعل مع اثارات بدنية أخرى • هذه التغيرات قد تضيف غرائز جديدة ، أو قد تمحو غرائز قديمة او تعدل فيها على نحو مـا •

١٨ ـ نمو الغريزة الجنسية :

ان تصور « فرويد » للغريزة الجنسية اوسع نطاقا من التصـور المألوف • فهو لا ينطوى على اصدار الطاقة من أجل نشاط لاذ شامـل للتنبيه التناسلي والمعالجة اليدوية التناسلية • وانما يشمل كذلك المعالجة اليدوية لمناطق بدنية اخرى من أجل اللذة أيضا • ففى منطقة من مناطق البدن حيث تتركز عمليات الاثارة المهيجة (التوترات) ، وحيث يمكـن القضاء على توتراتها بفعل يؤثر في هذه المنطقة ، كالمص والضرب ، تسمى هذه المنطقة بالمنطقة الشبقية • والمعالجة اليدوية للمنطقة الشبقية مشبعة لانها تزيل التهيج كما ان الحك بالاظافر يريح من احساس بالهرش ، ولانهـا تؤدي الى احساس لاذ •

ومناطـق الشبـق الرئيسية الثـلاث هي : الفـم ، والشرج وأعضاء التناسل • وان كان أي جزء من أجزاء البدن قد يغدو مركزا مثيرا يحتاج الى الراحة ويولد اللذة• وكل منطقة من هذه المناطق الرئيسية مرتبطة باشباع حاجة حيوية ، فالفم مرتبط بالطعام ، والشرج مرتبط بالتخلص من الفضلات ، والاعضاء التناسلية مرتبطة بالنسل • واللذة المتولدة من منطقة شبقية قد تكون ـ وكثيرا ما تكون ـ مستقلة عن اللذة المشتقة من اشباع الحاجة الحيوية • مثلا ، قرض الاظافر ، ومزاولة العادة السرية ،

هي من قبيل تخفيف التوتر ، ولكن الاولى لا تشبع الجوع ، كما أن الثانية لا تجدي نفعا في النسل •

وللمناطق الشبقية عظيم الاهمية لنمو الشخصية ، لانها اول منابع هامة للاثارات المهيجة التى لا بد للطفل من أن يقاومها ، وهي تحمل اول خبرات هامة للذة • وفضلا عن ذلك فالافعال الشاملة للمناطق الشبقية تحمل الطفل الى الصراع مع والديه ، وما ينجم عن ذلك من احباط ومن قلـق ينبه نمو عدد كبير من التكيفات والانتقالات ووجوه الدفاع ، والتحول والتراضي والتسامي •

(ا) المنطقة الفمية :

المنبعان الرئيسيان للذة الآتية من الفم هما المنبه اللمسي ، الذي نحصل عليه بوضع الاشياء في الفم ، والعض • والمنبـه اللمسي للشفتـين او الاحتكاك بهما ، واجترار الموضوعات يزودنا بلذة شبقية (جنسية) فمية • والعض يحمل لنا لذة فمية عدوانية • واللذة الفمية العدوانية تأتي فيما بعد في النمو ، اذ عليها ان تنتظر نمو الاسنان • واذا كان التمثل مؤلما ، كما هو الشأن حين يتناول الطفل جسما مرّ المذاق ، يتخلص الطفل من الشيء المضر له ، بأن يلفظه خارج فمه • وكنتيجة لمثل هذه الخبرات يتعلم الطفل تجنب الالم بأن يقفل فمه دون الاشياء المضايقة له • ومن جهة اخرى اذا ابعدنا شيئا لاذا من فم الطفل ، مثل ذلك ثدى الام او زجاجة الرضاع ، لهمّ الطفل بالتشبث به • وعلى ذلك فللفم خمس أنماط من الوظائف على أقل تقدير :

١ ـ تناول الاشياء ٢ ـ الامساك بهـا • ٣ ـ العض •
٤ ـ البصق • ٥ ـ الاطباق •

وكل نمط من هذه الانماط يعد النموذج الاولى لبعض سمات الشخصية • ونقصد بالنموذج الاولى نمطا أصيلا للتكيف مع حالة مؤلمة أو مزعجة • ويقوم هذا النموذج الاولى بمثابة طراز لتكيفات تحدث فيما بعد • وبعبارة أخرى ، لما كان الطفل قد تعلم القيام بتكيف خاص ، فانه يستخدم نفس التكيف حين تواجهه حالات مماثلة في مستقبل حياته • فاذا كان وضع الاشياء في الفم امرا لذيذا كما هو الشأن حين يكون الطفل جائعا ، فان تقبل المعرفة او الحب او السلطة حين يحس الانسان بالخلو قد يكون لذيذا ايضا • والواقع اننا نتحدث عن جوع للمعرفة او الحب او السلطة كما لو كانت اشياء مادية يمكن ان تؤكل • والفم يزودنا بكثير من النماذج الاولية للخبرات التي تنتقل الى حالات مماثلة • والواقع ان أغلب الخبرات الاولى تشمل البدن ، لان الطفل اكثر اتصالا بالوظائف البدنية منه بالبيئة الخارجية •

وتناول الاشياء في الفم هو النموذج الاولى للاكتساب • والامساك بالاشياء هو النموذج الاولى للتشبث والتصميم ، والعض نموذج للتدمير ، والبصق نموذج للنبذ والازدراء ، واطباق الفم نموذج للرفض والسلبية • اما ان السمات ستنمو وتغدو جزءا من خلق الفرد أو لا يتم لها نمو ، فان هذا يتوقف على مقدار الاحباط والقلق الذي يمارسه الفرد فيما يتعلق بالنموذج الاولى للتعبير عنها • فمثلا الطفل الذي يفطم فجأة لا تدريجيا قد ينمو لديه ميل قوى للتشبث بالاشياء حتى يمنع سلفا تكرار صدمة الفطام •

وبوجوه النقل والتسامى — على تعدد انواعها — يمكن أن يفضي التثبيت عند انماط فمية للنموذج الاولى الى شبكة كاملة من الاهتمامات ، والمواقف ، والتصرفات • فالشخص الذي اكتسب ميلا متسلطا للاجترار يأخذ الاشياء لا خلال الفم فحسب بل خلال أعضاء الحس أيضا ، مثلا

بالنظر بعينيه والانصات بأذنيه • والموقف الاجتراري قد يشمل الاشياء المجردة والرمزية ، مثل اجترار الحب والمعرفة والمال والسلطة ، والممتلكات المادية • والجشع وحب التملك تنمو كنتيجة لعدم الحصول على قدر كاف من الطعام او الحب في سنوات العمر الاولى • فالشخص المحب للتملك لا يرتوى اذ مهما يكن ما يمتلكه ، مالا كان أو شهرة ، فانه لا يعدو ان يكون بديلا لما يرغب فيه بالفعل ، أعنى الطعام من أم يحبها •

ولان الطفل يعتمد على شخص خارجي ـ هو عادة أمه ـ لكي يتخلص من الضيق الفمي ، ولكي يشبع لذاته الفمية ، فان في وسع الام ان تضبط سلوك الطفل باعطائه الطعام حين يكون مطيعا لرغباتها ، وبمنع الطعام عنه اذا شق عصى الطاعة • وحالما يغدو اعطاء الطعام مرتبطا بالحب والرضى ومنعه بالنبذ وعدم الرضي ، يغدو الطفل قلقا حين تدفعه امه بعيدا عنها او تتركه • ذلك لان هذا يعني فقدان موارد فمية مرغوبة • فاذا كان قدر من القلق مبنيا على هذا التهديد للذات الطفل الفمية ، فان الطفل يميل الى ان يعتمد اعتمادا تاما على أمه وعلى غيرها من الناس أيضا • وحينئذ ينمى موقف الاعتماد على الغير تجاه العالم • وبدلا من ان يتعلم اشباع مطالبه بجهوده الخاصة ، يتوقع ان تعطى له الاشياء حين يكون حسنا وتؤخذ منه حين يكون سيئا ، مثل هذا الشخص يقال عنه ان لديه خلق الاعتماد الفمي على الغير •

وحين يستشعر الشخص الخجل من رغبته في الاعتماد على الغير ، ينمو عنده رد فعل متكون يجعله يقاوم دائما الاعتماد على أي شخص • فلا يستطيع انيطلب من أي شخص ان يفعل له أي شيء ، لان هذا قد يعني أنه يفقد اعتماده على ذاته •

وقد يستخدم الاسقاط ايضا كدفاع ضد الارتكان الى الغير • فبدلا

من طلب العون يحس الشخص المسقط انه مجبر على أن يمد يد العـون للآخرين • مثل هذا الشخص قد يتولى حضانة الاطفال ا وعملا اجتماعيا ، او أي عمل انساني آخر • او قد تلوح وغباته الفمية المكبوتة في صـورة تنكرية • فقد يشغف الشخص باللغويات ، ويجمع الزجاجات الفارغة ، أو بتعلم التكلم من البطن •

والعدوان الفمى بالعض هو نموذج اولى لانواع عديدة من العدوانات المباشرة او المنقولة او التنكرية • فالطفل الذي يعض بأسنانه قد يعض وهو راشد يافع بالسخرية اللفظية ، أو التهكم او الاستخفاف • أو قد يغـدو محاميا ، سياسيا ، أو كاتب مقال صحفي • ونحن نتحدث عـن « عض شيء » أو عن « أخذ عضة بالاسنان » حين يسلك شخص مسلكا عدوانيا ، آمرا متسلطا • وحين يشعر الانسان بالذنب قد يستخدم العدوان الفمي كشكل من أشكال العقاب الذاتي فقد يعض الانسان شفتيه او لسانه •

وقد يفضي العدوان الفمي الى نشأة مشاعر من القلق يقف الشخص منها موقف دفاع بميكانيزمات متنوعة عند « الانا » • فقد يكون رد الفعل عند الشخص ضد العدوان الفمى بأن يقول اشياء طيبة عن اناس آخرين• او قد يسقط عدوانه الفمى بحيث يرى نفسه ضحية للعدوان من عالم مليء بالاعداء • وقد يثبت في نموه عند مرحلة اولية من العدوان الفمى او قد يتراجع اليها حين يواجه احباطات في مراحل نموه التالية تبلغ من الجسامة حدا لا يستطيع معه احتمالها •

ونبذ الشيء او الامتناع عن تناوله يتبعان نفس خط النمو الـذي يسلكه اخذ الاشياء وقضمها • فهذه الانماط من النماذج الاولى لرد الفعل تتحول الى طرائق عديدة مرهونة بالاشباعات والاحباطات الخاصة التي

تصادفها • فنمط النبذ في الشخصيـــة يتخصص بالازدراء والامتعاض ، والامتناع يتخصص بالعزلة والتحفظ • وبناء أنواع الدفاع ضد هـذه الانماط من السلوك كنتيجة للقلق يؤثر على نمو الشخصية بوسائـــل عديدة • مثلا ، تقبل لا تمييز فيه لكل ما يقوله شخص ما او ما يفعله متمثلا في العبارة التالية : « سيبتلع أي شيء » ، هو تكوين رد الفعل ضد البصق • واحساس الفرد بأنه طريد حين يوصد المجتمع ابوابه في وجهه هو اسقاط لاطباق الفم ضد شيء مؤلم •

ومظاهر هذه الانماط الخمسة من النشاط الفمي يمكن ان تلاحظ في كثير من مسارح الحياة • فهي تظهر في العلاقات الجارية بين الناس ، في مواقفهم الاقتصادية ، والاجتماعية والسياسية والدينية ، وفي اهتمامات الانسان ومفضلاته الثقافية والجمالية والترفيهية والرياضية والمهنية •

(ب) المنطقة الشرجية :

في الطرف الآخر للقناة الهضمية التي تبدأ من الفم ، هنالك فتحـة الشرج التـي تمر خلالهـا فضـلات الهضم في طريقهـا الـى خـارج الجسم • وينشأ التوتر في هذه المنطقة نتيجة لتراكم الغائط • هذه المادة تسبب الضغط على خوائط القولون وهو الجزء من الطريق المعوى الذي يقع خلف الشرج • وحين يصل الضغط على عضلة الشرج العاصرة الى حد معين تفتح وتطرد الفضلات بعملية تغوّط •

وطرد هذه الفضلات يجلب للشخص الراحة لان معناه القضاء على مصدر التوتر • ويمكن الاستفادة بهذه التجربة اللاذة في التخلص مـن الوان التوتر الناجمة في أجزاء اخرى من البدن • وتعد هذه التجربـة أنموذجا للانفجارات الانفعالية وتقلبات المزاج وثورات الغضب وغير ذلك

من ردود الفعل التصريفية البدائية ــ ومن المألوف اثناء العام الثاني مـن العمر او قبل ذلك ان توضع هذه الارجاع اللاارادية تحت رقابة ارادية خلال سلسلة من الخبرات تعرف عادة بالتدريب على التبول والتبرز • ويعد هذا التدريب عادة اول تجربة دقيقة يواجهها الطفل عند احتكاكه بالسلطـــة الخارجية وأصول النظام • وتجربة التبرز والتبول تمثل صراعا بين شحنة انفعالية غريزية (رغبة قضاء الحاجة) وحاجز خارجي • ويتخلف عن نتيجة هذا الصراع آثار لا تمحى في بنية الشخصية •

والطرائق التي تتبعها الام في تدريب الطفل ، ومواقفها من مسائل من قبيل التبرز والنظافة والضبط والمسئولية ، تحدد في اوسع نطاق طبيعة النفوذ الذي يسري من التدريب على التبرز الى الشخصية ونموها • ويقاوم الشخص بالطبع ان يكون له نشاط لاذ يتدحل في شأنه الغير وينظمه ، فان كان التدخل صارما وعقابيا فان الطفل قد ينتقم بان يلوث نفسه عمداء وحين ينمو مثل هذا الطفل يغدو متعبا لمصادر السلطـات ، غـير عابىء بالمسئولية ، فوضويا ، مضياعا ومسرفا • وعمليات التبرز الصارمة قـد تنتج رد فعل متكونا ضد الاشمئزاز الذي لا ضابط له ، في شكل اغراق في النظافة وفي التأنق والنظام الاجباري والاقتصادي ، والقرف ، والخوف من القذارة ، والتنسيق الدقيق لميزانية الوقت والمال •

ومن ناحية اخرى اذا كانت الام تلاطف طفلها حتى يتبرز وتثنى عليه كثيرا حين يفعل ، فانه يعتبر محصول ما عمل شيئا ثمينـا • ويشرع في مستقبل حياته في انتاج وخلق أشياء تدخل السرور على الآخرين او على نفسه ، كما كان شأنه حين تسر امه كلما تبرز • والكرم واغداق الهدايا ، والاحسان وحب الخير يمكن ان تكون جميعا ثمرات لهذه التجربة الجذرية•

واذا أعطيت للبراز قيمة زائدة عن الحد ، فقد يشعر الطفل بأنه فقد شيئا ثمينا حين تبرز • وتكون استجابته لهذا الفقدان ، أن يشعر بالحزن والفراغ والقلق • وسيحاول في المستقبل ان يمنع هذا الفقدان بأن يرفض التخلي عن غائطه • فاذا تثبت هذا النمط وعمم اصبح الشخص مقتصدا مقترا ومدبرا •

وحجز الغائط او قبضه هو النمط الثاني لوظيفة الشرج • ومع ان هذا الحجز يمكن ان يستخدم كدفاع ضد فقدان شيء يعتبر قيما ، فان الحجز لاذ في ذاته • فالضغط الرقيق على الحوائط الداخلية للقولون بواسطة مواد الغائط تشبع اشباعا حسيا • والتبرز ينهى هذه اللذة ويترك عند الشخص شعورا بالفراغ والهجر • واذا غدا الشخص مثبتا عند هذه الصورة من اللذة الشبقية فيمكن ان تنمو وتصبح اهتماما عاما ، لجمع الاشياء وحفظها وامتلاكها •

وتكوين رد الفعل ضد الحجز ، يمكن ان ينمو كنتيجة لمشاعر الذنب، وفي هذه الحالة يشعر الشخص انه مضطر ان يتخلى عن ممتلكاته وماله في طيش ، او يفقدها باستثمارها بجنون ، أو بالتهور في المقامرة • فامتلاك الاشياء يجعل مثل هؤلاء الناس غاية في القلق بحيث أنهم يفعلون أي شيء للتخلص منها • زد على ذلك انهم يحصلون على شيء من الاشباع حين ينفقون نقودهم انفاقا طليقا •

(ج) المنطقة القضيبية :

والمنطقة الثالثة الهامة من مناطق اللذة في الجسم تشمل الاعضاء الجنسية • فتدليك الشخص لاعضائه باليد « العادة السرية » يولد لذة حسية • وفي نفس الوقت ثمة تزايد في رغبة الطفل الجنسية تجاه والديه

ينجم عنه سلسلة من التغيرات الهامة في شحناته الانفعالية • وفترة النمو التي يشغل الطفل اثناءها بأعضائه التناسلية تسمى بمرحلة القضيب •

ولما كانت أعضاء التناسل عند الذكر والانثى مختلفة في بنائها ، فمن الضروري ان ندرس احداث مرحلة القضيب عند كل من الجنسين على حـدة :

أولا : مرحلة القضيب عند الذكر :

قبل ظهور فترة القضيب يحب الصبي أمه ويتقمص أباه وحين تلح عليه الضرورة الجنسية ، يغدو حب الصبي لامه حبا أشد امتزاجا بالرغبة الزانية • وينجم عن ذلك ان تتملكه الغيرة من غريمه : الاب • وهـذه الحالة التي يشتهي فيها الصبي الاستئثار وحده بامتلاك امه جنسيا ، ويشعر بالعداوة نحو أبيه ، تسمى عقدة اوديب • وقد كان أوديب شخصية بارزة في الاساطير الاغريقية ، اذ قتل اباه وتزوج امه • ونمو عقدة اوديب يشكل خطرا جديدا للصبي • فهو اذا واصل الشعور بالانجذاب الجنسي نحو امه لخاطر بأن يؤذيه أبوه ايذاءا بدنيا • والخوف النوعي الذي يمارسه الصبي هو ان والده سيمحو عضوه الجنسي الذي يكمن فيه الخطر • ويطلق على هذا الخوف قلق الخصاء • ويتمثل الخصاء بواقعة للصبي حين يرى ان التكوين الجنسي للفتاة يفتقر الى الاعضاء التناسلية البارزة عند الذكر • فالفتاة تبدو للفتى مخصية • فيخطر له « أنه اذا امكن ان يحدث هذا لها فمن الممكن ان يحدث لي أيضا » • ويكبت الصبي ـ نتيجة للقلق الخصائي ـ رغبته الزانية تجاه أمه ، وعداءه لابيه ، وتختفي عقدة اوديب • وتتكاتف عوامل اخرى ايضا على اضعاف عقدة أوديب ، هـذه العوامل هي : ١ ـ استحالة اشباع الرغبة الجنسية مع الام كما فعل أوديب • ٢ ـ ما تبديه أمه من مظاهر خيبة أملها فيه • ٣ ـ النضج •

وحين يصرف الفتى النظر عن أمه ، يمكن اما أن يتقمص الموضوع المفقود ، أعنى أمه ، او يضاعف تقمصه لابيه • وكون هذا يحدث او ذاك مرهون بمبلغ القوة النسبية لكل من المقومات الذكورية والانوثية في جبلة الصبي • ويزعم « فرويد » أن كل شخص مزدوج جنسيا في جبلته ، ومعنى هذا انه يرث ميول الجنس الآخر مثلما يرث ميول جنسه • فاذا كانت الميول الانثوية عند الصبي أقوى نسبيا ، مال الى تقمص أمه ، حالما تختفي عقدة أوديب • واذا كانت الميول الذكورية أقوى ، اشتد تقمصه لابيه • والواقع ان هنالك دائما شيء من التقمص مع الوالدين مثلما يكون هنالك شحنات انفعالية موضوعية • وبتقمص الاب يشارك الصبي أباه في شحنات الاخير الانفعالية تجاه الام • وفي نفس الوقت نجد تقمص الاب يأخذ مكان شحنات الصبي الانفعالية تجاه الاب • وبتقمص الام ، يحصل الصبي على اشباع جزئي لرغبته الجنسية تجاه الام ، بينما التقمص يأخذ مكان شحنات الصبي الانفعالية تجاه الام • والقوة النسبية لهذه التقمصات ومدى نجاحها يحدد مصير خلق الصبي وتعلقاته وعداواته ، ودرجة الذكورة والانوثة في المقبل من حياته • ويقال ان الانا الاعلى هو وريث عقدة أوديب ، ذلك لانه يأخذ مكان هذه العقدة •

والى فترة سنوات ــ على التقريب بين سن الخامسة حين يكبت عقدة أوديب الخوف من الخصاء ، وسن العاشرة حين تتزايد الى درجة عظيمة طاقة الغريزة الجنسية بفعل التغيرات الفسيولوجية في الجهاز التناسلي ــ تظل الدوافع الجنسية والعدوانية عند الصبي في حالة قمع • ويطلق على هذه الفترة فترة الكمون • وبقدوم البلوغ تنتعش الدوافع وتفضي الى ظهور الوان الضغط والمجاهدة الخاصة بالمراهقة • وفي سنوات المراهقة هذه تظهر تكيفات وتحولات جديدة تبلغ اوجها في استقرار الشخصية •

ثانيا : مرحلة القضيب عند الانثى :

وكما هو الشأن مع الصبي نجد أن أول موضوع حب للفتاة ، بصرف النظر عن حبها لبدنها (النرجسية) ، هو الام • وبخلاف حالة الصبي لا يلوح ان هناك تقمصا مبكرا مع الاب فحين تكتشف الفتاة انها لا تملك هذه الاعضاء الخارجية الملحوظة عند الذكر ، تشعر بالخصاء ، وهي تلوم امها على هذه الحالة ، وتضعف على ذلك الشحنات الانفعالية تجاه الام • زد على ذلك ان الام تخيب ظن الفتاة في أحوال اخرى • فهي تشعر ان الام لا تختصها بقدر كاف من الحب ، او انه لا مفر من آن يشاركها أخوتها وأخواتها في حب امها • وحالما تضعف الشحنات الانفعالية تجاه الام ، تبدأ الفتاة في ايثار الاب ، فهو له العضو الذي تفتقده هي ويعرف هذا بحسد القضيب وهذا هو الجانب الانثوى المواجه للقلق الخصائي عند الصبي • هاتان الحالتان الغيرة من القضيب ، والخوف الخصائي هما وجهان لظاهرة عامة واحدة ، تسمى عقدة الخصاء • وعقدتا الخصاء وأوديب ، هما اهم تطور يحدث في مرحلة القضيب •

وظهور عقدة الخصاء عند الصبي هو السبب الرئيسي في طرح عقدة أوديب جانبا ، بينما عقدة الخصاء عند الفتاة (الغيرة من القضيب) مسئولة عن مجيء عقدة أوديب ، فالفتاة تحب أباها وتغار من أمها • ومع ان عقدة أوديب عند الانثى لا تختفي على الوجه الذي تختفي به عند الذكر ، فانها تزداد ضعفا بفضل النضج ، واستحالة امتلاك الاب ، ومن ثم فالتقمصات تحل محل الشحنات الانفعالية الموضوعية •

والفتاة مثل الصبي ذات ازدواج جنسي أيضا ، وقوة التقمص مع أحد الوالدين يحددها في جزء منها القوة النسبية لكل من استعدادات الفتاة الذكورية والانثوية • فاذا كانت المقوّمات الذكورية قوية ، كانت الفتاة

أشد تقمصا مع الاب وتغدو فتاة وقحة سليطة . واذا كانت الغلبة للدوافع الانثوية كانت الفتاة اشد تقمصا لامها . وأيا ما كان فهنالك عادة درجة ما من التقمص والشحنة الانفعالية مع كل من الوالدين . فغيرة الفتاة من أمها تجعلها أقرب الى أبيها ، وتعوضها عن علاقة الحب التي افتقدتها عند أمها . وكذلك تقمص الفتاة مع أبيها يعوّضها الى حد ما عما ينقصها من أعضاء تناسلية ويصون شحنتها الانفعالية نحو أمها . وقوة هذه التقمصات ونجاحها لها نفوذها على طبيعة تعلقات الفتاة وعداواتها . وعلى درجة الذكـــورة والانوثة في المقبل من حياتها ، ولها نفوذها كذلك في نشأة «الانا الاعلى».

وللفتاة أيضا فترة كمون ، حين تقع الدوافع تحت سيطرة تكوّنات ردود الفعل، وتخرج الفتاة من فترة الكمون عند البلوغ . وهي أيضا تواجه مشكلات المراهقة ، وتنجز أخيرا قدرا ما من استقرار شخصيتها كفتـــاة راشدة .

(د) الجنسية التناسلية :

وتطلق فترة ما قبل التناسلية على المراحل الثلاث الخاصة بالنمو : المرحلة الفمية ، والمرحلة الشرجية ، والمرحلة القضيبية . وتشغل هذه الفترة الخمس سنوات الاولى من الحياة . والخاصية الثابتة للغريزة الجنسية خلال فترة ما قبل التناسلية هى النرجسية ، ولا ينبغى أن نخلط هذا النمط من النرجسية المسمى بالترجسية الاولية بما نطلق عليه النرجسية الثانويـــة . وتدل النرجسية الثانوية على مشاعر الكبرياء التي يمارسها « الانا » حين يتقمص المثل العليا « للانا الاعلى » وتدل النرجسية الاولية على المشاعر الحسية التي تنشأ من التنبيه الذاتي . فالنرجسية الاولية هى لذة بدنية تتمثل في مص الاصبع ، والتبرز والامساك عنه ، والعادة السرية .

ولا تنزوى الغريزة الجنسية خلال فترة ما قبل التناسلية الى النسل • فالطفل يرغب في بدنه هو لان هذا البدن هو مصدر لذة كبيرة • ويمكن أيضا ان يرغب في والديه • ولكن هذه الشحنات الانفعالية تنمو لان والديه، وبخاصة أمه ، يعينانه على انجاز لذته البدنية • فصدر الام هو مصدر رئيسي للذة الفمية ، ومداعبة الوالدين للطفل وتقبيله وتدليله تشبعه اشباعا جنسيا •

وعقب فترة الكمون تبدأ الغريزة الجنسية في النمو في اتجاه الهدف البيولوجي أعنى النسل • فيبدأ المراهق في أن ينجذب الى أعضاء الجنس المقابل • ويبلغ هذا الانجذاب اوجه في الاتحاد الجنسي • هذه المرحلة النهائية في النمو تسمى بالمرحلة التناسلية •و الطابع المخصص للمرحلة التناسلية هو اختيارات الموضوع اكثر منه النرجسية فهو فترة التنشئة الاجتماعية ، ونشاط الجماعة ، والزواج ، وتأسيس منزل وانشاء أسرة ، ونمو الاهتمام الجاد في التقدم المهنى وغير ذلك من مسئوليات الراشد • وهذه المرحلة هى اطول المراحل الاربع ، وهي تستمر منذ العقد الثاني من العمر حتى الشيخوخة حيث يميل الشخص الى التراجع الى فترة ما قبل التناسلية •

ولا ينبغى ان نزعم مع ذلك ان المرحلة التناسلية تحل محل المرحلة قبل التناسلية • ينبغي بالاحرى القول بأن الشحنات الانفعالية قبل التناسلية تندمج مع الشحنات الانفعالية التناسلية • فالقبلات والعناق وغير ذلك من اشكال ممارسة الحب ـ التي نسترسل فيها كجزء من المعاشرة ـ تشبع الدوافع قبل التناسلية • زد على ذلك ان الانتقالات والتساميات وغير ذلك من التحولات التي تقوم بها الشحنات الانفعالية قبل التناسلية تغدو جزءا من بنية الشخصية الثابتة •



تبينا مما سبق ان نمو الشخصية ينجم عن حالتين اساسيتين هما :
١ ــ النضج الطبيعي • ٢ ــ تعلم التغلب على الاحباطات ، وتجنب الالم ، وحل الصراعات ، وتخفيف القلق •

ويتمثل التعلم في تشكيل التقمصات ، والتساميات ، والانتقالات والاندماجات ، وضروب التراضي ، والتخلى والتعويض والدفاع • فهذه الميكانيزمات في الشخصية تنطوى على استبدال شحنات انفعالية موضوعية جديدة بالاختيارات الموضوعية الغريزية • وهى تشمل أيضا تكوين شحنات انفعالية مضادة تتصدى للشحنات الانفعالية الغريزية •

وتتوقف الطريقة التى تنمو بها الشخصية علـى تكوين الشحنـات الانفعالية والشحنات الانفعالية المضادة بواسطة الانا والانا الاعلى والتفاعل بينها •

الفَصْل الخَامِسْ

استقرار الشخصية

تحدث أضخم تغيرات في الشخصية خلال العقدين الاولين من الحياة . فهذان العقدان هما الفترة التي يتم فيها نضج الشخص ، اذ يتعلم التغلب على الاحباطات الخارجية والباطنية وألوان القصور الشخصي ويتكيف بها ، ويكتسب عادات ومهارات ومعرفة ، ويتجنب الالم ويدفع القلق ، ويحصل على الموضوعات التي يهدف اليها ، ويضمن الاشباع ، ويعوض ما يفقده وما يحرمه وما يسلب منه ، كما يحسم الصراعات . وفي نهاية هذه الفترة تحقق الشخصية ــ عادة ــ درجة ما من الاستقرار والتوازن تظل متصلة الى ان تبدأ عمليات التدهور في الشيخوخة . ويقال في نهاية هذه الفترة ان تنظيم الشخصية وديناميatها قد تم لها الاستقرار .

وحين نتحدث عن الشخصية المستقرة فلسنا نعنى ضمنا ان جميع الناس تنمو شخصياتهم على نفس النمط او حتى على انماط متماثلة . فهنالك عدد كبير من الانواع المختلفة للشخصيات المستقرة . فالتوازن قد يقوم حول ميكانيزم دفاعى خاص مثل الكبت والاسقاط او تكوين رد الفعل ، أو قد يبنى على تقمص قوى خاص مثلما يحدث حين يشكل شخص نفسه على نمط احد والديه او أحد اخوته او أي بطل آخر يؤثره . وينجم الاستقرار أيضا عن نمو الانتقالات والتساميات والتراضيات المعتادة .

والانماط والانتقالات والتراضيات المختلفة تبلغ في الواقع عددا لا حصر له كما يتضح ذلك حين تتأمل مبلغ تنوع وجوه النشاط عند الراشد • فثمة آلاف من الطرائق التي تشغل وقت المرء • وليس ثمة فردان لهما على الدقة نفس أنماط الاهتمامات والاذواق والتعلقات ، ومع ذلك فكل منهما قد وصل الى طريقة في الحياة تكفل له شيئا من الاستقرار •

كما اننا لا نعنى بالشخصية المستقرة ، ما يطلــق عليه الآخرون الشخصية الناضجة او الصحيحة او المتكيفة تكيفا طيبا ، او المثالية • فكل هذه عبارات قد تصف انماطا خاصة من الشخصية المستقرة ، ولكن أناسا كثيرين ينمون الاستقرار دون ان يصبحوا ناضجين او متكيفين • فقد يعتمد استقرارهم على تثبيتات واعراض عصابية او على تهربات ذهانية من عالم الواقع • فالمدمن على الخمور قد يكون مستقرا في طرائق ، ومع ذلك فيصعب ان نقول انه متكيف تكيفا طيبا •

فالشخصية التي يتميز صاحبها بالارتكان الى الغير او بالامســاك والتقتير قد تواصل نموها بدرجة عالية من الاطراد ، ولكنها لا يمكن ان تعتبر شخصية ناضجة • وكثير من الشخصيات المستقرة عوّق نموها ، مثل ذلك المراهق الدائم الذي لا ينمو ألبتة •

ومع ان تعبير « الشخصية المستقرة » قد يتضمن ان الراشد قــد استقر به المطاف عند نظام رتيب لحياته ، فانه لا ينبغي ان يحمل هذا التعبير ذلك المعنى الى القارىء • فالاستقرار لا يعنى بالضرورة الافتقار الــى التنوع في حياة الانسان ، وان كان يحمل ذلك المعنى بالضبط عند بعض الناس • فالاستقرار يفيد عادة ان التنوع يطابق نمطا يكاد يكون مطردا متنبأ به • فالراشد قد يغير عمله او زوجه او هواياته في كثير من الاحيان •

بيد ان العمل الجديد او الزوج الجديدة او الهواية الجديدة تشبه شبها وثيقا العمل القديم او الزوج القديمة والهواية القديمة • فالتنوعـات التي تدور حول موضوع واحد هى الطابع النموذجي لشخصية الراشد ، وليس في الامر تعاقب لموضوعات جديدة •

وأخيرا فنحن لا نعنى بالشخصية المستقرة ، شخصية خالية مـن الاحباطات ، والوان القلق ، او انواع التوترات الاخرى • فان الحياة لا تخلو ابدا من التوتر • بل ان الشخصية المستقرة هي شخصية تجري فيهـا تعديلات وتشكلات لمواجهة تزايد التوتر • هذه التعديلات هي موضوع فصلنا هذا •

فمن الواضح ان أشد الطرق فاعلية لمواجهة تزايد التوتر او منعه ، هو باستخدام عمليات « الانا » الثانية ، وهى كما يذكر القارىء تتألف من التفكير والاستدلال وحل المشكلة ، تفكيرا واستدلالا وحلا واقعيا • وفي وسع الراشد ان يحل معظم المشكلات التي تواجهه بطريقة واقعيـة ومرضية ، لو اكتسب خبرات وتجارب كافية في حل المشكلات العقليـة والمنطقية خلال العشرين سنة الاولى من حياته ، واكتمل له نضج عقلى •

ولكى تعمل العملية الثانية عملا فعالا ، يلزم ضبط شحنات الموضوع الانفعالية في « الهو » ، وشحنات المثل العليا في« الانا الاعلى » ، وذلك بتكوين شحنات مضادة ،والا لاتجهت هذه الشحنات الانفعالية نحـو تشويه مبدأ الواقع في «الانا» ، وذلك بخلطه بالتفكير المغرض والاخلاقي• زد على ذلك انه لا بد من وجود تيار من الطاقة متأهب لخدمة العمليـات السيكولوجية من قبيل الادراك ، والذاكرة ، والحكم ، والتمييز ، مـا دامت العملية الثانية تستخدم هذه الوظائف استخداما فياضا •

وتدفق الطاقة الى مجرى عمليات « الانا » يعنى ان الطاقة المطلقة « للهو » استحالت الى طاقة مقيدة . فيقال ان الطاقة في حالة تقيد حينما يتحول شحن الطاقة الحر ، الذي هو طابع الاثارات الغريزية الى شحن قوى ساكن نسبيا . ويتم ذلك باستثمار الطاقة في وظائف « الانا » غير التصريفية، فالشخص يفكر بدلا من ان يعمل . وثمة تمثيل قد يعيننا هنا على توضيح ما يحدث حين تغدو الطاقة مقيدة . فحيثما لم تكن للشخص التزامات مالية او مسئوليات ففى وسعه ان ينفق نقوده بحرية وفي اندفاع ، ففي استطاعته أن يقامر بها او يشرب او ينفقها في لذائذ اللحظة الحاضرة التي تجتذبه وتغويه . ومع ذلك اذا ربط نفسه بالتزامات بأن يشترى أشياء بالاقساط، ويستثمر نقوده ، ويدفع ضرائب ، او بأن يأخذ على عاتقه مسئولية تزويد نفسه والآخرين بطريقة منتظمة بالطعام والمأوى والضرورات الاخرى ، ووسائل الراحة : فههنا يرتبط بأن ينفق ماله في أغراض محددة . اذ ارتبطت امواله بقوائم مطلوبات شهرية وبنفقات معينة ، ولم يعد يستطيع ان ينفقها حيثما أراد . بمثل هذه الطريقة تربط الشخصية طاقتها النفسية باستثمارها في عمليات « الانا » المستقرة المنظمة .

ويتم الاستقرار أيضا باستثمار الطاقة في ميكانيزمات الاسقاط وتكوين رد الفعل والكبت والتثبيت والنكوص . فاذا لم يكن في وسع الشخص ان يتعامل مع الواقع كما هو ففي استطاعته ان يحاول تغيير الواقع بأن يجعله متجاوبا مع رغباته ومثله العليا . ومع أن هذه الحيل الاستراتيجية التي ينهض بها « الانا » تشوه الواقع وتموهه ، فانها مع ذلك فعالة في حماية الشخص من آثار القلق والاحباط المثبطة . وقد يكون الاستقرار الذي تهيئه ميكانيزمات الدفاع استقرارا واهنا متخاذلا ، اذا كانت وجوه الدفاع ضعيفة . ولكن اذا كان عمر الشخص عشرين عاما انفقها كلها في تقوية وجوه الدفاع ، فليس من الميسور ان تتهافت بسهولة . ان وجوه

الدفاع تستنزف الطاقة من العمليات الثانية وتحل محل التفكير الواقعي •

وبمرور الزمن يصل الشخص الى مرحلة الرشد ، وتكاد تستقر الانتقالات والتساميات عند أساس ثابت ، وتكاد تتم تحولات الغرائز واندماجاتها على نطاق واسع • وقد علمته خبرات السنوات العشرين الاولى كيف ينهض بالتراضيات او الحلول الوسطى ، وهى الى حد ما مشبعة أو اذا لم تكن مشبعة فهى تعين على الاقل على احتمال الالم والقلق • هذه التراضيات تعبر عن ذاتها في اهتمامات ومواقف وتعلقات ومفضلات • ولها يد ، ليس فقط في تحديد القرارات الكبرى في الحياة ــ مثلا اختيار المهنة، او انتقاء شريك الحياة ــ وانما هى أيضا منبثة في تلك القرارات الصغرى العديدة التي يتخذها الشخص كل يوم • والاطراد الذي تتخذ به هذه الاختيارات ، وما يسمى تحفظ الراشد ا ومقاومته للتغيير مرهون بالثبات النسبي لطابع شحنات الراشد الانفعالية • ودوام هذه الشحنات يعتمد على عاملين هامين : ١ ــ فان هذه الشحنات تستمد طاقتها وفعاليتها من منابع غريزية • ٢ ــ وهى لا تسمح بتصريف كامل للتوتر اذ تعارضها شحنات مضادة • ان عمل اي شخص مثلا ، ينطوى على عدد من وجوه النشاط المختلفة ، التي تشبع اثارات غريزية متنوعة ، ولكن اشباع كل هذه الاثارات في وقت واحد امر بعيد الاحتمال • فالعرف الجاري والعادات، والتقاليد ، والاتساق ، والنظام والتحفظ والاعتياد ، والتكرار ، كل هذا يتمثل في الشخصية المستقرة ، ويمثل التراضي بين القوى القائدة (الشحنات الانفعالية) ، وقوى المقاومة (الشحنات المضادة) •

ويمضي بنا هذا الى دور « الانا الاعلى » في شخصية الراشد • فشحنات الانا المثالى تمثل تساميات شحنات الموضوع البدائية ، وطابع

التساميات يعتمد اصلا على انواع السلوك التي يجازى عليها الطفل وبقاء التسامى او عدم بقائه مرهون ، بدوره ، بالاشباع او تخفيف الالم الذي يمكنه مواصلة تحقيقه . فاذا كان هذا التسامى على المدى البعيد لا يزود بلذة ما او تحسين ، فسرعان ما يختفي . وتبعا لذلك ففي غضون سنوات النمو نجد ان تلك المثل العليا المشبعة نزيد منعة . اما تلك التي لا تخدم اي غرض فتتلاشى . والشخصية المكتملة تشمل ما تبقى من اختيارات الموضوع المثالية المخففة للتوتر . فالطقوس الدينية والاعمال الجماعية والترفيهية ، والمساهمة في النشاط الاجتماعي والاهتمامات الثقافية والجمالية والادبية ودراسة الطبيعة ، كلها أمثلة لوجوه التسامى عند الراشد .

وبالمثل نجد أن شبكة الموانع « الشحنات المضادة » وهى تؤلف الضمير ، تغدو مستقرة ايضا . فالموانع تضعف وتختفى حين تثبت التجربة ان الاخطار التى تنصب عليها هذه الموانع قد زالت ؛ بينما الموانع التي يقويها الخوف من العقاب بين فترة واخرى تثبت في الشخصية . ويضطر « الانا » ان يحسم الموقف مع شحنات « الانا الاعلى » المضادة . وهو يفعل ذلك بأن يجد طريقا وسطا بين شحناته الانفعالية الخاصة به وتلك الخاصة « بالهو » وبين شحنات الضمير المضادة . هذا الطريق الوسط مسئول عن تلك القسمة العامة في الشخصية المستقرة اعنى بها الاعتدال . فمن المألوف ان التلقائية والاندفاعية اقل ظهورا بكثير في سلوك الراشد عنها في سلوك الشاب اليافع . ومع ذلك فاذا كانت الشحنات المضادة « للانا الاعلى » اقوى جدا بالنسبة لاختيارات الموضوع في « الهو » و « الانا » ، كان طابع الشخصية المستقرة هو الصرامة لا الاعتدال . وصاحب هذه الشخصية يحيا حياة ضيقة الافق متوجسة حذرة ، فاستقراره هو استقرار شخص مكتوف اليدين .

وفي نهاية مطاف التحليل نجد ان الشخصية المستقرة هى الشخصية التي اقامت من خلال التعلم والنضج ، ميزانا او توازنا بين الشحنات الانفعالية والشحنات المضادة • وتحدد المؤثرات التى تقع على الشخصية في نموها وظيفة هذا الميزان ، اعنى عما اذا كانت كفة الاشباع فيه أرجح او كفة المنع او كانت الكفتان متعادلتين • فطغيان الموانع والتهديدات والاخطار ، والعقوبات وألوان الفشل ، والاغتصاب والاكراه والوعيد ، والاحباطات والقصور والافلاس ، تفضي الى شد ازر القوى العائقة في الشخصية ، بينما غلبة النجاح والاشباع والانتصارات والملاءمة ، والانجاز تعين على تكوين الشحنات الانفعالية • ان وجود شحنات مضادة قوية تزيد من مستوى التوتر في الشخصية ما دامت تمنع الطاقة النفسية من التبدد • ومع ذلك ، فبالرغم من وجود توتر ملحوظ يمكن ان تكون الشخصية غاية في الاستقرار بقدر ما يكون هنالك من توازن محفوظ بين القوى • فبعض الناس الذين تثور أعصابهم فتكاد تتمزق في لحظة لا يلبثون ان يسترجعوا ثباتهم ويستعيدوا هدوءهم لان القوى المضادة قد توازنت •

والاستقرار يولده أيضا الحسم في الصراعات التي تشتبك فيها القوى الغريزية المتعارضة او مشتقاتها • ويتم حسم الصراع بطرائق عديدة • فقد ينتصر احد المتصارعين على الآخر • فمثلا قد يقهر الحب الكره او يشله • وليس يعنى هذا اختفاء الكره ، فانه قد يواصل البروز في صورة خفية أو مخمودة • وما يكاد الحب يخمد حتى يظهر الكره مرة اخرى • وقد يحسم الصراع أيضا بالعثور على طرائق لاشباع البواعث المصطرعة كلها • وقد يتم هذا بالقيام بتصرفات تختلف باختلاف اصناف الموضوعات • مثل ذلك ، قد يتبادل شخص الصداقة مع زملائه (في الجماعة الداخلية) والعداء مع الاجانب (في الجماعة الخارجية) • وقد يذعن الشخص لمن هم اعلى منه وينهر من هم ادنى • ويمكن حسم الصراع أيضا بالتعبير تعبيرا متقطعا من

وقت لآخر عن الغريزة الاخرى في الموضوع نفسه • فالمحبة يمكن ان تتبادل مكانها في كثير من الاحيان مع العداوة ، وتربط بينهما على ذلك رابطة وثيقة • هذا الشكل من أشكال الحسم هو اشبه بابرة تتمايل الى وراء والى امام بين قطبين •

وقد تكون أكثر الطرق غلبة في حسم الصراعات الاندماج او التكامل • فان الشخص يجد طريقة لاشباع القوى المتعارضة كلها في نشاط واحد • مثل ذلك ، شخص يشغل منصبا مسئولا باعتباره موظفا في شركة كبيرة يشبع معا رغبته في الاعتماد على الآخرين ، بأن يكون موظفا يتقاضى مرتبا في مؤسسة مضمونة ، ورغبته في الاستقلال بأن ينهض بأعباء ومسئوليات تستلزم حكما مستقلا صادرا منه وحده • وعلى ذلك فهو يبرأ من شدة القلق اذ يكون معتمدا على الغير ، ويبرأ من عدم الاطمئنان اذ يكون مستقلا في حكمه • ففي خلال فترة الاستطلاع الاولى ، في العشرين سنة ، يتعلم الشخص طرقا كثيرة لتسوية الصراعات • فهو يتعلم كيف يمكنه « أن يحصل على كعكة ويأكلها أيضا » مع أنه قد لا يستطيع ابدا ان يحصل على كل ما يرغب فيه في الحالين •

خلاصة القول اذن ، ان الشخصية المستقرة هى الشخصية التي تجد فيها الطاقة النفسية طرائق ثابتة ودائمة نوعا ما ، للتصريف من أجل انجاز العمل السيكولوجي • ويحدد طبيعة هذا العمل معرفة الخصائص البنائية والدينامية « للهو » ، و « الانا » ، و « الانا الاعلى » ، بالتفاعل الجاري بينها ، وبنمو كل منها نموا مطردا •

قائمة بمراجع الكتاب [1]

أولاً : أبحاث ومقالات « لسيجموند فرويد »

الفصل الثاني [2]

FREUD, SIGMUND :

(1900) The Interpretation of dreams, chap. 7. London : The Hogarth Press, 1953.

(1911) «Formulations Regarding the Two Principles in Mental functioning.» In Collected Papers vol. IV, pp. 13-12. L. 1946.

(1923) The Ego and The Id. L. 1947.

(1925) «A Note upon the Mystic Writing». In Collected Papers, Vol. v. pp. 175-180. L. 1950.

(1925) «Negation.» In Collected Papers, Vol. v, pp. 181-185. L. 1950.

(1933) New Introductory Lectures on Psycho-analysis, Chap. 3.

---

(١) يلاحظ ان المؤلف رجع الى المصادر الاولى لآراء « فرويد » في أبحاثه ذاتها .

(٢) لم يذكر المؤلف مراجع للفصل الاول باعتباره عرضا عاما لسيرة « فرويد » ومبتكراته . (المترجم) .

(New york: W. W. Nortorn & Company Inc.) 1933.

(1938) An Outline of Psycho-analysis. Chap. 1., N.Y. 1949.

الفصــل الثالث

أبحاث عن الطاقة ، والغريزة ، والشحنة الانفعالية

(1915) «Instincts and Their Vicissitudes.» In Collected Papers, Vol. iv. pp. 60-83.
London, 1946. ......

(1920) Beyond The Pleasure Principle. London, 1948.

(1923) The Ego and The Id, Chap. iv. London, 1947.

(1924) «The Economic Problem in Masochism.»
In Collected Papers. Vol. 11 pp. 255-68. London, 1933.

(1933) New Introductory Lectures on Psycho-analysis, Chap. 4. New York: (W. W. Norton & Company, Inc.) 1933

(1938) An Outline of Psycho-analysis, Chap. 2, New York. 1949.

ابحاث عن الشعور واللاشعور

(1900) The Interpretation of Dreams, Chap. 7, London 1953.

(1912) «A Note on the Unconscious in Psycho-analysis» In Collected Papers Vol. iv. pp. 22-29. London 1946.

(1915) «The Unconscious». In Colected Papers Vol. iv, pp. 98-186. London, 1946.

(1923) The Ego and the Id., Chap. I. London, 1947.

(1938) An Outline of Psycho-analysis. Chap. 4. N. Y. 1949.

عـــن القلـــق

(1926) Inhibitions, Symptoms & Anxiety. London, 1948.

(1933) New Introductory Lectures on Psycho - analysis Chap. 4. New York, 1933.

الفصـــل الرابع

أبحاث عن التقمص

(1921) Group Psychology & the Analysis of the Ego, Chap. VII. London, 1948.

(1923) The Ego and the Id. Chap. III. London, 194/.

(1923) New Introductory Lectures on Psycho-analysis, Chap. 3 N. Y. 1933.

عن النقــل والتسامي

(1908) «Character and Anal Erotism.» In Collected Papers, Vol. II, pp. 45-50. London, 1933.

(1908) «Civilized Sexual Morality and Modern Nervousness.» In Collected Papers Vol. II. pp. 76-99. London, 1933

(1908) «The Relation of the Poet to Day-dreaming». In. C. P. Vol. iv, pp. 173-83. London, 1946.

(1910) Leonardo da Vinci, A Study in Psycho-sexuality. N. Y. 1947.

(1923) The Ego and the Id, Chap. iv London, 1947.

(1930) Civilization and its Discontents. Chap. II. London,

عن ميكانيزمات الدفاع

(1915) «Repression.» In. C. P. Vol. iv., pp. 84-97. London, 1946.

(1921) «Instincts and Their Vicissitudes.» Inc. C., P. Vol. IV, pp. 60-83. L. 1946.

(1963) «A Disturbances of Memory on the Acropolis.» In. P. Vol. V. pp. 352-12 London, 1950.

(1937) «Analysis Terminable and Interminable.» In. C. P. vol. v, pp. 302-12. E. 1950.

(1939) Moses and Monotheism. Sec. 1, Chap. 5. N.Y. 1947.

عـن الغريزة الجنسية

(1905) «Three Contributions to the Theory of Sex» In : The Basic Writings of Sigmund Freud, pp. 553-629. N.Y. (Random House Inc.), E. 1938.

(1923) «The Infantile Genital Organization of the Libido.» In. C. P. vol. II, pp. 244-49. E. 1933.

(1925) «The Passing of the Oedipus-Complex» In. C. P., vol. II, pp. 269-76. London, 1933.

(1925) «Some Psychological Consequences. of the Anatomical Distinction Between the Sexes.» In. C.P. Vol. V, pp. 186-97. London, 1950

(1931) «Female Sexuality. in c.p. Vol, V, pp. 252-72. L. 1950.

(1933) New Introductory lectures on Psycho - analysis, chap.5. N.Y. : W.W. Norton & Company, Inc. 1933.

الفصـــل الخامس

(1910) Leonardo da Vinci : A Study in Psycho-sexuality. N. Y. Random House, Inc. 1947.

(1920) Beyond the Pleasure Principle. L. 1984 ·

(1930) Civilization & Its Discontents. London, 1930.

ثانياً : بعض كتب مختارة متصلة بموضوعات الكتاب

BRAUCH, DOROTHY : One Little Boy. N. Y. Julian Press, Inc. 1952.

BERG, CHARLES : Deep Analysis. N. Y. W.W. (Norton & Company, Inc.) 1947.

BLUM, GERALD : Psycho-analytic Theories of Personality. N. Y. (Mc. Graw Hill Book Com, Inc.) 1953.

DEUTSCH, HELENE : Psychology of Women. 2 vols. N. Y.; (Grune & Stratton, Inc.) 1644.

ERIKSON, E. H. : Childhood & Society, N. Y. (W. W. Norton & Com. Inc.) 1930.

FENICHEL, OTTO :The Psycho-analytic Theory of Neurosis. N. Y. (W. W. Norton & Com.) 1945.

HENDRICK, IVES. : Facts and Theories of Psycho-analysis. N. Y. (Alfred A. knopf, Inc.,) 1947.

JONES, ERNEST : The Life and Work of Sigmund Freud, Vol. I. N. Y. (Bassic Books, Inc.) 1953

MENNINGER, KARI : Man Against Himself. New York : (Harcourt, Brace and Com.) 1938.

MULLAHY, PATRICK : Oedipus Myth & Complex N. Y. : (Hermitage House) 1949.

STERBA, RICHARD : Introduction to the Psycho-analytic Theory of the Libido. N.Y.: (Nervous and Mental Disease Monographs), 1942.

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

نمـــو الشـخصية

كتب اخرى للمترجم

— David Hume : Théorie Politique, (Paris 1955) .
— L'Ethique de Hume - Etude Critique sur ses fondements dàns la Nature Humaine, (Le Caire 1957) .
(Exemplaires Dactilographiés)

ـ قوة الارادة « لجون كنيدي » (نفد) الناشر المصري ـ القاهرة ١٩٤٥

ـ محاورات في الدين الطبيعي « لديفيد هيوم » .
مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٦

ـ فلسفة هيوم . طبعة ثانية
مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٧

ـ المعرفة . طبعة ثالثة
مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٢

ـ التحليل النفسي « لارنست جونز » (نفد)
مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٧

ـ مشكلات فلسفية « كارل ياسبرز ـ وليم جيمس » (نفد)
مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٧

ـ وليم جيمس
مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٧

ـ الشيوعية والفلسفة
« بحث في كتاب الشيوعية اليوم وغدا » مكتبة مصر ١٩٥٩

ـ نماذج من الفلسفة السياسية
مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦١

ـ الشخصية بتحليل فرويد « كلفن هال »
مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦١ (نفد)

ـ النظرية السياسية عند هيوم دار المعرفة ١٩٦٢
ـ بعض مشكلات الفلسفة « لوليم جيمس » القاهرة ١٩٦٢
« الطبعة الثانية » بيروت ١٩٦٩
ـ تاريخ الفلسفة الامريكية « هربرت شنيدر »
مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤
ـ « الناس والامم » بحث في أصول الفلسفة السياسية
« للويس هل » سجل العرب ١٩٦٥
ـ « أسس ميتافيزيقا الاخلاق » لامانويل كانط ـ القاهرة ١٩٦٥
« الطبعة الثانية » . دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٠
ـ التعليم والحرية « فلسفة هوراس مان في التربية »
اعداد « لورنس كريمين »
مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٦
ـ مدخل الى الفلسفة « كارل ياسبرز »
مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٧
ـ في الفلسفة الحديثة والمعاصرة
مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٨
ـ « جون لوك » دراسة نقدية لفلسفته التجريبية
دار الطلبة العرب ببيروت ١٩٦٩
ـ « المجتمع العربي ـ تحليل لمقوماته الحضارية » بالاشتراك
الباب السادس
دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٦٩
ـ « أسس المنطق والمنهج العلمي »
دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٠
ـ « تاريخ الفلسفة الغربية » لبرتراند رسل
الجزء الثالث ـ « الفلسفة الحديثة » تحت الطبع
الهيئة العامة للتأليف والترجمة ـ القاهرة



تم تنفيذ وطبع
هذا الكتاب
في مطابع مؤسسة
جواد للطباعة والتصوير
تلفون ٢٩٠١٣٣ - ٢٢٨٢٤٦
بيروت - لبنان